9me Année No. 397

Lundi - 10 - 2 - 1941

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٣٩٧ « القاهرة في يوم الإثنين ١٤ محرم سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٠ فبراير سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

صفحة

فلسفة الضحك

للأستاذ عباس محمود العقاد

والذي ذكرني هـذا الموضوع هو الفيلسوف الفرنسي « برجسون » ، لأنه صاحب رأي من الآراء المعدودة في « فلسفة الضحك » ، ولأن الأشياء التي توضع في الذهن موضع المتناقضات من دأبها أن يذكر بعضها ببعض ؛ فالبكاء من ألزم الأشياء لفجيعة الموت ، والضحك يناقض البكاء على جميع الألسنة ، وإن لم يكونا في الواقع نقيضين أو طرفين متقابلين

فالحزن نقيض السرور ولـكنه ليس بنقيض الضحك ؛ وقد يحزن الحيوان الأعجم ولـكنه لا يضحك أبداً ولا يستطيع أن يضحك ، إذ الضحك خلة إنسانية ملازمة للعقل والضمير . ويقال : إن الإنسان حيوان ضاحك ، كما يقال : إن الإنسان حيوان ناطق : كلاهما وصف لا ينفصل عن التمييز الإنساني ولا يكون لغير الإنسان

وهنا ينبغي أن ننبه إلى أن قهقهة القرد ليست من الضحك إلا في الصـوت ، وأن الببغاء قد تحاكي الإنسان الضاحك كما تحاكي الإنسان المتكلم ، ولـكنها جميعها أصداء وأصوات ليس لها من التمييز المنطقي نصيب

ولا غرابة في أن يُعرَّف الإنسان بالضحك كما يعرَّف بالنطق

والتمييز، لأن المنطق هو الذى يجعلنا نضحك، وكل عمل مضحك فهو فى حقيقته منطق ناقص أو قضية يختل فيها القياس والترتيب

ومن ثم يضحكنا الأطفال لأنهم لا يحسنون القياس، ولكنهم يركبون القضايا المنطقية تركيباً فيه نقص واختلال

فالطفل الذى يرى أباه يحلق ذقنه فيصر على أن يحلق ذقنه مثله يقيس قياساً منطقياً لا يدرى موضع النقص فيه

وكذلك الطفل الذى يصيح فى أهله أن يردوا شعره إليه بعد حلقه، إنما يقيس الشعر على الأشياء التى تؤخذ منه وترد إليه كلما شاء استردادها، فيخطىء القياس

والكبار الذين يضحكوننا إنما يصنعون مثل هذا: يقيسون ويخطئون القياس، ويكتفون بالمحاكاة ولا يتصرفون

ولو أننا نظرنا إلى كبار الممثلين المضحكين لوجدنا أنهم يتعمدون الخطأ على هذا المنوال، ويتبعون أسلوباً فى وضع الأمور فى غير مواضعها يتنوع ويختلف على حسب أمزجتهم وملكاتهم ولكنه يلتقى فى خلة واحدة وهى اختلال القياس

فلوريل وهاردى مثلاً قد أدخلا السجن فى إحدى رواياتهما ثم استطاعا الإفلات منه ونما بالسكر والنزهة وهما مفلتان، فلما طاردهما الحراس فى الطريق هربا إلى باب السجن يلتمسان الخلاص هناك: قياس منطقى لا شك فيه، ولكن النقص فيه ظاهر للمتفرجين وإن لم يظهر للممثلين على حسب الدور الذى كانا يمثلانه

وشارلى شابلن قرأ فلسفة الضحك للفيلسوف برجسون قبل أن يمثل لنا الإنسان الآلى الذى يأكل بالعدد المتحركة فى روايته (أنوار المدينة)، وكذلك لاحظ هذه الفلسفة على ما نظن فى الكلمات التى كان يغنيها بغير معنى ولا وحدة فى بعض مواقف تلك الرواية، لأن مذهب برجسون أن سبب الضحك هو تصرف الإنسان كما تتصرف الآلة، بغير تمييز بين التفقات والمختلفات، وبين ما يقتضى التغيير وما ليس يقتضيه

وهذا مذهب مطابق لما أسلفناه من تعليل الضحك باختلال القياس أو الاطراد على نسق واحد لا يوجب الاطراد

رجل دخل السجن مرة فهرب وسكر وطرب فهو يحسب كل دخلة إلى السجن منتهية إلى هذه النتيجة، ويمضى على هذا السنن كما تمضى الآلة التى تأتى بحركة واحدة ولا تقدر على تغييرها إذا تغيرت الدواعى والموجبات

فالضحك إنما هو سلاح الإنسانية للمحافظة على المرتبة التى وصلت إليها فوق الجماد وفوق الحيوان، ومن هنا استحال على الحيوان أن يضحك لأنه لم يصل إلى هذه المرتبة وليس عنده من التمييز ما تستدعيه

ومذهب برجسون هذا هو جزء متمم لفلسفة كلها فى حقيقة التطور وحقيقة المادة والفكرة، فهى تركيبة شاملة يفسر بعضها بعضاً ويقوم الدليل من إحدى نواحيها على إثبات سائر النواحى. وله براعة فى هذا التوفيق مع سهولة فى التعبير لم يرزقها فيلسوف حديث بعد «شوبنهور» الذى انفرد بهذه المزية بين فلاسفة الألمان وسائر الفلاسفة فى عصره

* * *

وللقارىء أن يراجع النكات أو المواقف التمثيلية التى أضحكته ليعرضها على هذا المذهب، فهو واجد فيها لا محالة تصرفاً هو أشبه بحركة الآلة منه بتمييز الإنسان الناطق، أو واجد فيها شيئاً من وضع الأمور فى غير موضعها وقياسها على غير مقياس صحيح

ومن أمثلة ذلك تلك النكتة التى تروى عن ظريف من أبناء البلد يقول عن أحد الأطباء إنه يعلق مريضاً على باب المستوصف!

فذلك الطبيب على حسب هذه النكتة يرى أن أصحاب الدكاكين يعلقون على وجهاتها نماذج مما يعملون فيه، وهو يعمل فى المرضى ويستمد منهم تجارته، فلماذا يا ترى لا يعلق مريضاً على باب دكانه؟

وهذا هو التصرف الآلى كما يقول برجسون، أو هذا هو القياس بغير القياس الصحيح

ومن أمثلة ذلك «حانوتى» فى إحدى الروايات الهزلية التى عرضت بمسارحنا المصرية يملأ جيوبه بالمناديل المطوقة بالسواد ليقدمها إلى الباكين من أهل الموتى على سبيل الإعلان «عن المحل»!

فالتصرف فى هذا الموقف كتصرف الطبيب المزعوم، والقياس هنا كالقياس هناك

ومن الواجب أن نفرق بين موضوع الضحك وبين شعورنا الذى نواجه به الإنسان المضحك، فإنهما شيئان منفصلان كل الانفصال كانفصال حقيقة الجمال عن شعورك أنت بالإنسان الجميل

فنحن نعطف على الطفل الذى نضحك منه ، ونزدرى الرجل الكبير الذى يصنع مثل صنعه ، وننفر من المغرور المكابر الذى يبعث الضحك والسخرية ، ونألم للمريض الذى يخلى كما يخلى الأطفال وأشباه الأطفال ، وما من إحساس من هذه الأحاسيس داخل فى طبيعة الضحك وحقيقته الفلسفية ، بل هو عارض يلازم الضحك أو يفارقه ويكون عند هذا الإنسان على خلاف ما يكون عند غيره : فقد يؤلمنى ما يوجب الازدراء عند الآخرين ؛ وقد تغتبط لرؤية العدو فى موقف السخرية وتأسى لرؤية الصديق فى ذلك الموقف بعينه

* * *

إن نبى برجسون لم يذكرنى فلسفة الضحك وحدها بل ذكرنى أموراً كثيرة منها ما يحزن ومنها ما يبعث الرجاء

ذكرنى نصيب الفلسفة بيننا نحن المصريين منذ عشرات الآلاف من السنين ، فلم يكن للفلسفة قط نصيب حسن بين المصريين أقدمين كانوا أو محدثين

لم ؟ لأن الدولة القوية تنشأ إلى جانبها الكهانة القوية ، ولأن الكهانة القوية قد استأثرت فى مصر القديمة بالبحث عن حقائق الكون وأسرار الحياة ، وأدخلتها فى عداد المراسم الدينية التى تفرضها على الأفكار ، ولا تسيغ فيها التجديد والابتكار

أما بعد انقضاء الدولة القديمة والكهانة القديمة فالاستعباد علة محققة من علل القضاء على الفلسفة فى هذه الأمة ، لأن الفلسفة هى المعرفة التى يطلبها العقل لذاتها أو يطلبها لذاته ؛ فهى من مطالب الأحرار وليست من مطالب المستعبدين الذين يريدون ما يرادون عليه ويحصرون همتهم فى المنفعة والجزاء

وقد ينبغ بين هؤلاء المستعبدين حكماء من معنى الحكمة التى هى اختبار واتعاظ وانتفاع بتجارب السابقين

أما الحكماء من معنى الحكمة التى هى نفاذ إلى كنه الحقائق ، فظهورهم وارتفاع شأنهم بين المستعبدين مستحيل أو كالمستحيل

هاتان علتان أرضاهما لتعليل كساد الفلسفة بين أبناء هذه الأمة فى الزمنين القديم والحديث ، ولا بد من مرانة طويلة على الحرية قبل أن يزول هذا الأثر من آثار الاستعباد

ولكن هل العلة التى أرضاها هى العلة التى تطابق جملة الأسباب ؟ وهل هى دون غيرها التى تطابقها ، أو هنالك علل أخرى يقول بها من ليس يرضيهم من أمر هذه الأمة ما نرضاه ؟

العلل التى تقال فى هذا الصدد كثيرة ، ومنها ضيق الواعية وانطباع الذهن على سهولة التفكير والتقيد بالمحسوسات والعمليات

ومنها قلة الجد والجلد وأخذ الحياة بالظواهر والوقوف بها عند السكك المطروقة والعادات المكرورة التى تصد عن الإبداع وتغلق منافذ الاستغراب والتساؤل والاستطلاع

وكلتا العلتين تستند إلى الأخرى ، وكلتاهما لا نرضاها ولا نجزم بنفيها لأننا لا نرضاها !

* * *

قلنا إن نبى برجسون ذكرنا أموراً تحزن وأموراً تبعث الرجاء . فهذا الذى يحزن وهو حزن هين فى عرف الكثيرين !

أما الذى يبعث الرجاء فهو تلك النبوءة التى أنبأ فيها الفيلسوف بهزيمة السلاح المادى أمام الآداب الإنسانية يوم أن نشبت الحرب الماضية وكان الناس فى شك من عقباها لما شاهدوه من بطش السلاح المادى خلال المعارك الأولى

فقد كان برجسون مؤمناً بغلبة الروح على القوة المادية ، وكان يبنى ذلك الإيمان على مثل السبب الذى اعتمده فى تعليل الضحك ، وهو أن التقدم الإنسانى مرهون بتقدم الروحيات على الآليات ، وأن الإنسان لم يخلق ضاحكا ليصبح آلة مغلوباً بقوة الآلة ، بل خلق ضاحكا ليسخر من الآلات ، ومن يردونه إلى حكم الآلات .

عباس محمود العقاد

أخـــلاق القرآن

صلة الأرحام

للدكتور عبد الوهاب عزام

(خاتمة)

أمر القرآن الكريم بالرحمة العامة والإحسان الشامل — الرحمة التي تنال القريب والبعيد والإنسان والحيوان، والإحسان الذي يعم الناس جميعاً ويشمل كل فعل وكل قول . . .

ثم خص ضروباً من الناس فوكد الأمر بالإحسان إليهم، وكرر الوصية بالبر بهم، ومن هؤلاء ضعاف الناس من الفقراء واليتامى إذ كانوا أحوج إلى العطف، وأجدر بالبر، وأولى بالإحسان .

وممن وكد القرآن الأمر ببرهم والإحسان إليهم، ذوو القرابة . لأن القريب أعرف بقريبه وأدنى إليه، ولأن الإحسان العام يبدأ بالقرابة ثم يتسع فيهم، ولأن مودة القرابة تمكن الأواصر بينهم وتشيع المحبة فيهم، وتقربهم إلى التعاون . ومن هذه المودة في القربى تستحكم روابط الأسر، ومن الأسر تتألف الأمة متينة الأساس محكمة البناء . فودة القربى دُربة على المودة العامة، وتمهيد للاحسان الشامل . والقطيعة بين الأقرباء فساد وإن صغر كبير، وشر وإن قل مستطير، وعلة في النواة تبين في الشجرة، وخلل في الأسرة يظهر في الأمة

لذلك وكد كتاب الله الأمر بمودة ذوى القرابة وصلة الأرحام ولا سيما الوالدان

عظّم القرآن صلة الأرحام إذ قرن تقواها بتقوى الله تعالى فقال : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » . وأمر بتوفية القرابة حقها إذ قال : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » . وقرن قطع الأرحام بالإفساد في الأرض إذ قال : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم »

وقد جاء في حديث الرسول صلوات الله عليه وسلامه أن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم : « هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يا رب . قال : فهو لك » وقال رجل للرسول : « أخبرني بعمل يدخلني الجنة » فقال : « تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم » وفي الحديث أيضاً : « لا يدخل الجنة قاطع »

ذلكم أمر القرآن والسنة بصلة الأرحام عامة والنهي عن قطعها . وأما بر الوالدين خاصة فقد أعظم القرآن أمره، وكرر الأمر به في آيات كثيرة . وحسبك أن القرآن قرن الإحسان إلى الوالدين بتوحيد الله، وشكر الله بشكرهما في آيات قال : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » وقال : « قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » وقال : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً . »

بل أمر القرآن الكريم أن يحسن الولد المسلم إلى أبويه غير المسلمين وإن دعواه إلى الكفر واجتهدا في رَدّه عن الإسلام . قال : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكرلي ولوالديك . إلىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »

وجاء في الحديث أن رجلاً سأل رسول الله أى العمل أحب إلى الله عزّ وجلّ ؟ قال : الصلاة على وقتها . قال ثم أى ؟ قال : بر الوالدين . قال ثم أى ؟ قال الجهاد في سبيل الله . وروى عبد الله بن عمرو « أن رجلاً قال للنبي : أجاهد . قال : ألك أبوان ؟ قال نعم . قال : ففيهما فجاهد . » وقد ذكر رسول الله الكبائر فقال : الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين . »

وأما الإحسان إلى الأولاد فله من شفقة الوالدين ما يغنى عن الترغيب والإيصاء ؛ ولكن يقع في البشر شذوذ يصيب الولد بقسوة الوالد . وقد علم القرآن الناس البر بالأولاد ولا سيما

البنات فعصم دماءهن وجعل لهن حقاً في الميراث ، ورفع مكانة المرأة وجعل لها مثل ما عليها من الحقوق والواجبات

وفي رسول الله أسوة حسنة للوالد الشفيق والأب البار . قبّل رسول الله الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً . فنظر إليه رسول الله ثم قال : من لا يرحم لا يرحم . وقال أعرابي للنبي : تقبلون الصبيان ؟ فما نقبّلهم . فقال : « أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك ؟ »

هكذا أشاد الإسلام بحقوق القرابة وأواصر الأسرة ووكد رعايتها وجعل لها مسحة من التقديس ، لأن الناس لا يتحابون ويتوادون ويتعاونون إلا أن تبدأ هذه المحبة وهذا التعاون من الأسرة ، ثم تتسع عاطفة الخير فتعم القريب والبعيد ، وتفيض على الأمة كلها ثم تنال الناس جميعاً

وإنـا لنرى اليوم أواصر الأرحام تتقطع ، وعرى القرابة تنفصم ، وبناء الأسرة يهن بما بعدنا من قرآننا وديننا وتاريخنا وسنتنا . شغل رب الأسرة عن أسرته ، وثارت بالأولاد الفتنة ، وظن الأحداث أن الحرية أن ينتهكوا حرمات الأسرة ، وأن الجِدّة أن يثوروا على سلطان الوالدين

ألا إن على المصلحين أن يطبوا لهـذا الداء ، وأن يبذلوا ما يملكون من فكر وعمل في تقوية أواصر القرابة وإحكام بناء الأسرة على قواعد من الحب والإيثار ، وإكبار الكبير والعطف على الصغير ، والتعاون على الخير والحق

خاتمة

قصصت عليكم طرفاً من أخلاق القرآن ، وحدثتكم بنبذة من آدابه وشذرة من وصاياه ، وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

تكلمت عن العدل ، والوفاء بالعهد ، وعن الإحسان والصدق والصبر والعفو ولم أرد أن أستقصي أخلاق القرآن وآدابه فهي شريعة الإسلام الأخلاقية كلها ، وهي تهدي إلى ما بعدها ، وترشد إلى ما وراءها . والقرآن الكريم كنز من الأخلاق لا يفنى ، ومنبع للفضائل لا ينضب . فليت المسلمين يرجعون إليه ليتبينوا سننه ، ويتخلقوا بأخلاقه ويتأدبوا بآدابه ، لتكون لهم عصمة في هذا العصر المفتون ، وقبساً وعزاً من هذا الذل ، واجتماعاً من هذه الفرقة ، وعلماً من هذه الجهالات ، وهدى من هذه الضلالات ، ولتكون لهم بعد الشقاء سعادة ، وبعد الشدة رخاء ، وبعد العسر يسراً .

ألا إن كتاب الله الكريم لا يدعو إلى أخلاق الصوامع كما بينت لكم ، ولكن يدعو إلى أخلاق تسعد الناس في معارك الحياة ، وترشدهم في فتنها ، وتوفي بهم على الغاية التي أرادها الله لخلقه ، وهدى لها عباده ، وبعث من أجلها رسله . الأخلاق التي يحيا بها موتى الشقاء لا التي يموت بها الأحياء . وإن فيها لسعادة الفرد والجماعة وسعادة الناس كافة ، وإن فيها لنجاة العالم من كوارثه ، وخلاصه من مهالكه ، وإنما هي السلام في نفس الفرد ، وفي جماعة الأسرة ، وفي نظام الأمة ، وفي مجتمع البشر .

وهل هي إلا تخليص النفس من ضلالاتها، وتطهيرها من أرجاسها ، وإبراؤها من أهوائها ، ثم حكمها بعدل الله الذي يبصر بالواجب كما يبصّر بالحق ، ويدعو إلى العطاء كما يدعو إلى الأخذ ، وينزل الناس على حكم الإنصاف المؤلف للقلوب ، والألفة المعينة على الخطوب ، والتعاون الذي يذلل الصعاب ، ويُبلّغ المقاصد ، وينيل المطالب ، ثم إقامة الجماعة في نظام جامع من الإنصاف والألفة والمودة والتعاون يردّ عداوتهم محبة ، وحربهم سلاماً ، وظلمهم عدلاً ، وجشعهم قناعة ، ويجمع القلوب والعقول والأيدي على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

إلى هذه الأخلاق يدعو القرآن ، وإلى هذه المقاصد تقصد أخلاق القرآن . فمن لي بأن يهتدي المسلمون بها لتهدي الأمم بهم ؟ ومن لي أن يلجأ المسلمون إليها ليكونوا لهـا حجة قائمة وإليها دعوة صادقة ، ويذكروا أنهم أمة واحدة يهديها كتاب واحد ، وأن أخلاق القرآن هي الوشائج التي تجمعهم والسنن التي تنظمهم ، والأسطر التي تؤلف بين كلماتهم ؛ ثم يحذروا أن يذهب نظامهم بدداً ، واجتماعهم اضطراباً ، بما فرطوا فيها أورثوا من هذه الأخلاق القويمة ، وهذه السنن الصالحة ، وهذه القوانين الجامعة

يقول الله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » .

ويقول : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين . ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » . صدق الله العظيم .

عبد الوهاب عزام

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

البلبل العائد إلى الروض — بيني وبين أصدقائي

البلبل العائد إلى الروض

كنت أحب أن أجزى الأستاذ البشبيشى ثناء بثناء ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ولكن غرامى بالمشاغبة غيّر مقام الخطاب ، فأنا سألقاه باللام لا بالثناء ، وهو المسئول عما سيقع فى كلامى من قسوة وعنف ، لأنه حدثنا أنه مُقْبِلٌ على أمر عظيم هو العودة إلى الروض ، وقد كادت كلمته بالرسالة تشهد بأنه يعانى مشقة أليمة فى رياضة جناحيه على النهوض ، بعد طول القرار بأرض المجُود ، إن جاز الوهم بأن الغفوة تجوز على قلب ذلك الصديق

ومالى لا أقول الحق فأصرح بأنى أخاف على الأستاذ البشبيشى عواقب العودة إلى روض الأدب والبيان ؟

أنا أخاف على هذا الصديق أشد الخوف ، لأن ماضيه القريب دلنى على أنه تعرّض لغضب الأدب مرتين ، ولو شئت لقلت إنه تعرض لغضب الله مرات ... ولكن كيف ؟

نسى الأستاذ البشبيشى أو تناسى أن الله يسوق المكاره إلى النوابغ من وقت إلى وقت ليفتح عيونهم وقلوبهم على ما فى الوجود من أنوار وظلمات ، ونسى أو تناسى أن الله يطالب أولئك النوابغ بالجد على تلك المكاره ، لأنها فى الواقع نِعَم سوابغ

فما الذى صنع ذلك الصديق وقد تفضل الله بامتحانه مرة ومرتين ومرات ليشرع القلم فى وصف ما يعتلج فى ضمير الوجود من آراء وأهواء وحقائق وأباطيل ؟

أوذىَ البشبيشى بالظلم والغدر والعقوق ، فهل استفاد قلمه من ذلك الإيذاء ؟

أيكون آثر العفو عن ظالميه ؟ إن كان ذلك فما الذى صدر عن قلمه فى ذلك الصفح الجميل ؟

المهمّ هو أن ينتفع الكاتب من جميع الظروف ، فيكون لقلمه حنين ورنين وصرير وزئير ، وَفقاً لاختلاف الأحوال من قلق وهدوء ، وبؤس ونعيم ، فإن ضيّع هذه الفرص السوانح وترك عواطفه تخمد وتبيد فهو غير أهل للعودة إلى الروض ، ونحن على صده قادرون ، فليس منا مَن يضيّع فرصة الانتفاع بمواسم القلوب فى القبض والبسط واليأس والرجاء

إن روض الأدب ليس حديقة مصقولة الحواشى كالحدائق التى تقام فى قصور الأمراء والوزراء ، فتلك حدائق لا تتغنّى فيها البلابل إلا وهى محبوسة فى أقفاص ، أو ما يشبه الأقفاص من المغانى المسقوفة بأسلاك الحديد

روض الأدب ليس من تلك الحدائق حتى يقول الأستاذ البشبيشى إنه قادم للغناء وفى يده وَتَرٌ حنّان هو قلمه البليغ

هيهات ، هيهات ، وإنما روض الأدب جنة وحشية تشبه الجنة التى اعترك فيها الخير والشر والهدى والضلال لعهد آدم وحواء

فى روض الأدب أزهار ورياحين ، وفيه أيضاً أشواك وحيات وشياطين

هو روضٌ وحشى تجاورَ فيه الكِناس والعرين ، واقترب فيه عش الطائر من وكر الثعبان ، وأنتَ واجدٌ بذلك الروض ما شئت من صنوف السم والترياق ، ففيه أنهار من الشهد وبحار من الصاب ، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من أفانين الود والحقد والصدق والبهتان

فى ذلك الروض الوحشى لا يفرد البلبل إلا وهو مطمئن إلى أنه تفرد بالقدرة على السباحة فى لجج الهواء ... وفى ذلك الروض يزأر الأسد وهو واثق بأنه السيد المطلق ، وفيه يبغم الظبى حين يعرف مسالك الأمان من كيد أولئك « السكان »

كل شىء حىّ فى ذلك الروض حتى هوامد الأعشاب وصوامت الغدران . فما الذى أعددت ، أيها البلبل ، لزيارة هذا الروض ؟

ما أشد خوفى عليك ، يا صديقى ، فأنت فيما يظهر لم تسمع بأفاعى الرياض

البلبل فى ذلك الروض يغنى بالنهار ، ويسهر خائفاً بالليل ، لأنه يعرف أن فى ذلك الروض خلائق مؤذية تتسلق الأشجار فى الظلمات لتعصر رقاب البلابل ثم تبتلعها برفق ؛ والموت هو الموت ولو جاء فى أعقاب النشوة بكؤوس الرحيق

وأنا جربت الحياة فى روض الأدب ، وعرفت من أهوال ذلك الروض ما لا تعرف . وهل تعرف أنى كنت فى روض

الأدب بُلبلاً وأفعواناً ورئبالاً ؟ هل تعرف أنى غنّيتُ ولدَغتُ وهَصَرتُ؟ هل تعرف أنى قابلتُ خلائق ذلك الروض بأسلحة مختلفات : منها الصوت الرخيم ، والناب المسموم ، والمِخلبُ الفاتك ؟

وهل أُلام على ما صنعت وأنا أعيش فى مَسبعة سمعت تفاؤلاً بالروض ؟

وتقول : إننى اجتذبتك إلى هذا الروض ؛ وما قلت إلا الحق فقد كان قلبى ولن يزال مسموع الصوت ، مستجاب الدعاء ، ولكن كيف اجتذبتك ؟ ما صنعت ذلك ترفقاً بك ولا عطفاً عليك ، وإنما أردت أن تكثر النفوس فى تلك المسبعة الفيحاء ، ليذهب عنى بروحك المؤنس بعض ما أقاسى من مُضجِرات الاستيحاش ، إن صح لمثلى أن يتهيب العزلة والانفراد فى روض السباع الضاريات

أما بعد ، فهذا روض الأدب ، وهذا بلبل يعود بعد طول الغياب ، ليغرّد فوق أفنان « الرسالة » الشَّجراء

والحق أنه لن يرى لأول وهلة أن روض الأدب من الغابات الوحشية ، وكيف وفى ذلك الروض كتاب وشعراء وعلماء ؟ ولكن العبرة بالخواتيم ، والخواتيم فى أيدى أناس غير أولئك ، ناس لا يعرفهم ولا يعرفونه ، وهم الذين يحكمون على الأدب وهو منهم بَراء

لو فهم كل قارئ ما تريد أن تقول ، لكان من السهل أن يأتلف الأسد والغزال ، والبلبل والثعبان

ولو فهم كل قارئ أن للكاتب حقاً فى أن يؤدى رسالته بالأسلوب الذى يختار لعرف قومٌ أنْ لا موجب للحيرة فى أمرى وقد طويتُ محاسنى ونشرتُ عيوبى ، لأسلم من آصار التكبر والازدهاء ، ولأجمل الرأى فى سعادتى وشقاوتى لمن تفرد بالعزة والجبروت ، له الحمد وعليه الثناء

هذا روض الأدب ، وهذا بلبل يعود
أهلاً وسهلاً ومرحباً ! !

ولكن يجب أن يعترف الأستاذ البشبيشى بأننا خصصناه بالأهل والسهل والرحب ، وهى ألفاظ لم نسمع بها فى هذا الروض فما كان إلا مسارب صِلال ومدارج ذئاب

الأدب ؟ الأدب ؟

ماذا جنينا من أيامه ولياليه وقد سبَقَنا المتجرون بالنمائم والدسائس والأراجيف ؟

إن الجاسوس يملك من الثروة أضعاف ما يملك الأديب ، وأهونُ الحظوظ فى الدنيا هى حظوظ الأديب ؛ فأين من يتوجع لبلائنا بالدنيا والناس ؟

آمنت بالله ، وتُبتُ إلى الله ؛ فما عرفت نعمةً أعظم من نعمة الخلوة إلى القلم فى لحظات السيطرة الروحية على زمام الوجود

إلى القلم ، إلى الروض ، إلى مُشترَك الهدى والضلال ، إلى حيث نصافح بالفكر والروح شياطين النفوس وملائكة القلوب !

ومن الله الذى أقسم بالقلم وما يَسطُرُون نسأل الأمان من إخوان الزمان

بينى وبين أصدقائى

وأصدقائى فى هذا الحديث هم قراء « الرسالة » الذين تطيب لهم مراسلتى من حين إلى حين ، وهم خير الأصدقاء ، لأن الصلات الروحية أعظم وأنفس من جميع الصلات ؛ ومع اعترافى بهذه الحقيقة التى تؤنس روحى فأنا لا أؤدى حقوق هذه الصداقة إلا فى أندر الأحايين ، لأن صفحات « الرسالة » تضيق عن تسجيل ما يدور بينى وبينهم من فنون الأحاديث ؛ فماذا أريد أن أقول لهم فى هذه الكلمات ؟

١ — أريد أن أطَمْئن الأديب « البيسى » الذى نقل إلىّ عواطف بعض إخوانه فى الإسكندرية عما كتبته فى تأنيب الشاب المقيم بإحدى قرى المنوفية ، فقد عدّوا كلامى تثبيطاً لعزائم الشبان ، وتخوفوا عواقبه فى قتل مواهب ذلك الأديب الناشئ .

وأجيب بأن ذلك الشاب لم ينتحر — كما توقعت — وإنما أجاب جواباً يشهد بأنه خُلق للحياة لا للموت ، وذلك ما كنت أبغى ، فما يسرنى أن تكثر الأرقام ، وإنما يسرنى أن تكثر الأعلام ، وأديبٌ واحدٌ متمكن أنفع للأمة من ألوف الأدباء الموسومين بالجهل المصقول ، وأعيذ الأديب « الدسوق » أن يكون من هؤلاء

٢ — وأريد أن أقول للأديب « . . . . » إن ثناءه على ما أكتب فى النقد الأدبى لا يغرينى بالسير فى ذلك الطريق إلى نهاية الشوط ، لأن الجمهور يغيب عنه الفرق بين النقد والتجريح ، وهو يتوهم أن لنا غاية فى تعقب الآثار الأدبية بالتزييف والتصحيح . . . يضاف إلى ذلك أنى أكره أشياء من بعض الناس ، ففيهم من يعيش بوجهين ، فيكتب إلىّ مشجِّعاً ، ويكتب إلى من أنقدهم متوجعاً ؛ كالذى صنع فلان حين رجا أن يكون كتابه خاصًّا لا يصل إلى أسماع القراء ! فهل تراهم سمعوا منه شيئاً ؟ ! وهل عرفوا أنه يقيم فى بلد يقيم فيه شاعر كبير اسمه أحمد . وهو غير الشاعر أحمد الكاشف ؟

٣ — وأريد أن أقول لصاحب « جريدة مصر العليا » إنى راض عن التسمية الطريفة لمصر الشمالية ومصر الجنوبية ، وهو يعرف ما أعنى

٤ — ثم أنظر فى جريدة « الأحوال » البغدادية فأجد صورة « شارع فيصل » بجانب الكرخ ، وتحت الصورة كلمات موجَّهة إلىّ برفق ولطف ، كلمات دبَّجها أديب كريم عزّ عليه أن أشكو زمانى فهو يقول :

« أنت أكبر من الزمان ، ما دام لك إخوانٌ أوفياء »

وعندئذ أتذكر أن لى فى العراق ذخيرة روحية ، ثم أتذكر تمثال فيصل ، فمع من جلست فى رحاب ذلك التمثال وصدرى يفيض بالكروب فى ليلة عتاب :

يا روعةَ البــدر فى سَماهُ   وفتنةَ الزهر فى الغصونِ
تناسَ ما شئتَ سوف تخبو   حرارة الدمع فى الشؤون
وســوف تَبلَى على الليالى   غرائب السِّحر فى العيون
أستغفر الحبَّ سوف يَبقَى   على صروف الأسى حنينى

وتذكرت الخطابات التى تلقيتها من الكرخ ، وأجبت عنها بالصمت ، فراراً من عواقب الافتضاح ، وهل كنت إلا طيفاً زار فى السحر بساتين الكرخ وبغداد ؟!

٥ — وهذا خطاب من الأستاذ جاسم الرجب يشرح خلافاً بينه وبين الأستاذ شاكر الجودى حول مقال نُشر فى « الرسالة » بدون إمضاء ، ثم فنَّدته بعُنف ، ويرى السيد جاسم أن الناقد هو الكاتب ، وأجيب بأنى نسيت ظروف ذلك المقال !

أما ثورة السيد جاسم على فلم « فتاة متمردة » ودعواه أنه ينقصُ من المجتمع المصرى فهو كلامٌ لا أوافقه عليه ، فذلك الفلم من الأفلام الجيدة ، وقد شاهدته فأبكانى ، وهو يمثل صورة من أزمات النفوس تقع فى مصر كل يوم ، وقد تقع أيضاً فى العراق ، لو التفت هذا الصديق إلى ما يمرّ بالنفوس من مكاره وخطوب .

٦ — وذاك خطاب من أخ صادق يقول فيه : « هل يذكر الدكتور زكى مبارك أنه ألقى فى البريد المصرى تذكرة واحدة لإخوانه فى بغداد وما عرف فيهم غير الصدق والوفاء ؟ »

وأجيب بأن العراق شغلنى عن العراقيين ، ولو جُمع ما كتبته فى الجرائد المصرية عن العراق لكان مادة تكفى لتأليف ألف خطاب ، فهل ينفعنى هذا الاعتذار الطريف ؟

وأنتهز هذه الفرصة فأوجه العتاب إلى رقابة البريد فى مصر ، فهى تفتح جميع الخطابات التى تَرِد إلىّ من العراق ، فماذا ينتظر الرقباء ؟ هل يتوهمون أن من المحتمل أن يكون فى تلك الخطابات ما يستوجب السؤال والجواب ؟

وماذا يصنع رجل مثلى أكثر من الذى صنع ليقنع قومه بأنه لا يعرف غير الهيام بخلق المودّات لمصر فى أقطار الشرق ؟ وكيف كانت تصير الصلات بين مصر والعراق لو صفح قلمى عمن حاولوا تكدير تلك الصلات ؟

الرقباء ينفذون خطة يقضى بها الواجب ، ولكن من حقنا على الدولة أن نذكرها بأننا نعرف من المسئولية مثل الذى تعرف ، فنحن جنودها الأمناء ، وما يجوز لها أن تؤذينا ولو بالتلميح ، إلا أن يقال إن الرقباء لا يعرفون اسم زكى مبارك وهو عُذرٌ مقبول !

٧ — وأريد أن أشكر للأديب الذى يكتب إلىّ من « فارسكور » حماسته البالغة فى ملاحقتى بالنقد المنيف ، ثقةً بأن خفاء اسمه ينجيه من بطش قلمى ! ثم أرجوه أن يتذكر أن عنوانى هو « مصر الجديدة » فلا موجب لهيام خطاباته بين إدارة الرسالة ووزارة المعارف ، فقد يعرِّضها ذلك الهيام للضياع

أما التوجيه الذى ينتظره منى فهو سهل ؛ فقد دلت رسائله على تباشير من الفهم الصحيح ، ويكفى أن يثابر على المطالعة الجدية بدون انقطاع ، وليقصر مطالعاته مؤقتاً على أطايب

٥ – أومن بالإنسان !

رد وتعليق

للأستاذ عبد المنعم خلاف

من الدفتر القديم — فى حدود البداهة — فليكن قرداً نهض على قدميه ، ثم ماذا ؟ — وارث الحياة — الشر يلد والعلم يدفن — الأشقياء المالكون — نتائج الايمان بالانسان ونتائج الكفر به — أخلاق العلماء — الألمان والانجليز والعرب — المنادكة وعبادة الأبقار والثعابين — صوفية شاردة تتخيل وصوفية مادية تتحقق — استغلال سر الوجود على تفاوت — برغوث أبى العلاء — مذهب هدامة — فترات التمهيد لظهور الانسان — لا تمس فى غرائز الانسان — العلم أضاف حياة للحياة — ما أشدت بأخلاق الانسان — الدولة كائن عضوى واحد — تقدم العلم وتخلف الخلق — لو آمن بنفسه — يوم قريب — لغير المؤمنين

قرأت المقال الطريف لصديقى الأستاذ زكى نجيب محمود الذى أخرجه مخرج الإنكار لما ذهبت إليه من رأى فى القيمة السامية لحياة الإنسان وتفرده بالسيادة بين الكائنات، وبتوجيه منافع ما فى الأرض كله إليه ، وبتفرده بالتغلب على كثير من قوى الطبيعة الأرضية وتسخيره إياها ، وببساطة الحياة فى الأرض بدونه ، وبقدرته على إيجاد عوالم ومعان وصناعات ومدن وآثار ورسالات لم يكن فى الحياة شىء منها ، وبقيامه وسط دورات الأرض الأبدية المحدودة المكررة ، بحياة حرة تذهب فى أى اتجاه وتكاد تكون منفصلة عن حياة الطبيعة

وكنت أود أن أعيد فى صدد الرد على صديقى ما سبق أن ذكرته فى العددين ٣٥٣ ، ٣٥٦ من هذه المجلة رداً على سائل بيروتى سألنى عن مسائل تدور حول الإنسان ، وآخر مصرى رأى أن يذكرنى بحياة النظام والدقة التى تحياها أمم النمل والنحل وغيرها حين رأى إشادتى بالقيمة السامية لحياة الإنسان ، ولكن إعادة ذلك الحديث على قرب العهد به مما يضيق به صدرى ويضيق عنه نطاق « الرسالة » ومنهاجها ؛ فأحيل صديقى والذين قرأوا مقاله فأثر فيهم على هاتين المقالتين السالفتين فإن ما فيهما كفيل — فيما أرى — أن يلقى ضوءاً عريضاً غزيراً كاشفاً على الفروق بين أمم الحيوان وأمة الإنسان أبى العجائب ...

غير أنى أود أن أزيد هنا بعض أفكار أقدم قبلها أسئلة بديهية

المؤلفات فى الأدب الحديث ، لأنه أقرب إلى الأفهام والعقول ، إذ كان صوراً تمثل أذواق الناس فى هذا الجيل ، وله بعد ذلك أن يطالع من الأدب القديم ما يشاء

وأعتقد أن من حقه أن ينشر فى « الرسالة » بعض خواطره ، لأنه يملك القدرة على التعبير المقبول

٨ — وأريد أن أقول للأستاذ « م . م . م » إن نثرك أقوى من شعرك ، وقوة الروح لا تُعوزك ، وإنما يُعوزك ما كان يسميه القدماء « شدة الأسر » فى صوغ القصيد ، فأرجو أن تكثر من حفظ القصائد الجياد ليرتاض طبعك على النظم الرصين

أما الأديب « مجنون القريض » فسيكون له بين الشعراء مكان

٩ — وأريد أن أقول للأديب « الصنمانى » إنى تلقيت خطابه بأطيب القبول ، ونحن أنصار الحرية فى الرأى ، فمن واجبنا أن نرحب بكل ما يؤيد دعائم الحرية ، وإن أخطأ صاحبه فى التعبير عن قلبه السليم

١٠ — وأقول للأديب إلياس سليمان بحوث إنى لا أصدّق أن فى الدنيا رجلاً أغير منى على لغة العرب ، فليس من حقه أن يتوهم أنى لا أبالى قواعد النحو والصرف حين ألتمس وجهاً لضم الظاء من « الظرف » فى نطق المصريين ، وما شأن هذه المسألة بالنحو والصرف ، يا حضرة الأديب ؟

أنا أقول إن « الظُّرف » أخذ حكم « اللُّطف » عن طريق الإتباع ، ثم بقى له الحكم مع الانفراد ، وهناك علة ثانية وهى التمييز بين المحسوس والمعقول ، والمصريون عرب ، وهم لا يخطئون فى لغتهم عن جهل ، وإنما « يخطئون » لأسرار قد تخفى على بعض القراء ، فتتوهمهم مخطئين وهم على صواب

والحق أنه لا بدّ من التماس العلل والأسباب لانحراف النطق عند بعض الجماهير ، فذلك الانحراف قد يصدُر عن سليقة مستورة لا يتنبه لها اللغويون ، وهذا ما أردت النص عليه ، يا سيد « سليمان » !

زكى مبارك

ألقيها على صديقى خليفة (سليمان بن داود) (مفهم الطير والبهائم والمردة) والفراش المبثوث والبعوض والبرغوث :

هل رأى أو سمع أن أمة من أمم الحيوان والحشرات اصطادت إنساناً ووضعته فى قفص وعرضته أمام الأنظار ؟

وهل رأى أو سمع أن فرساً أو حماراً ألجم إنساناً وركبه أو حرث عليه حقله أو وضع على ظهره حمله ؟

وهل رأى أو سمع أن جملاً أو فيلاً أو ديكا أو خروفاً قدم لإنسان حفنة من شعير أو أعواد برسيم أو قدح ماء ؟

وهل رأى أو سمع أن برغوثاً أو بعوضة أو فراشة صنعت دواء ووضعته فى مضخة ماصة كابسة ثم أطلقته على الإنسان لتخدره أو تدفع أذاه أو تقتله ؟

وهل رأى أو سمع أن حيواناً ما قطف زهرة ووضعها فى أصيص يتأمل جمالها ويزين بها مسكنه، أو أقام معرضاً أو متحفاً للبذور والثمار أو منتجات الحيوان والإنسان ؟

هل رأى أو سمع أن جماعة من الأبقار أو الأغنام ثارت على جزار وأمسكت به وذبحته وسلخته، وأخذت من لحمه وشعره وجلده وظفره منافع ؟ أو على الأقل أدركت لماذا تساق هى إلى المذابح ؟

هل اصطنع ذئب أو سبع من سباع الأرض سلاحاً يدفع به غائلة الإنسان ومكايده وحبائله ؟

أترك لصديقى زكى أن يدرك سير الحياة بالإنسان، ووضعه بين الأحياء من خلال الأجوبة على هذه الأسئلة

ثم لنفرض ما يقوله بعض شراح نظرية النشوء والترقى صحيحاً من أن الإنسان أصله قرد نهض على قدميه ... ثم ماذا ! ؟

لقد سبق هو وتخلفت سائر الأنواع ... إذاً هو وحده كان محفوفاً بعناية الذى خلق الأنواع كلها حتى جعله فى قمة الحياة العضوية الحيوانية، ثم بثق فى رأسه بثقاً صار منبع عالم جديد عريض مخالف لسائر أساليب الحياة المعهودة، إذ جعله يصنع موجودات تفوق قدرة الحيوان، وقدرته هو على السرعة والاحتمال والنقل والسمع والبصر والتكبير والتجهير والتقريب، ولم نر غيره حيواناً يخترع آلة لصيد فريسته . ولم نر أمة من أمم النمل تخترع عجلة تحمل عليها الأثقال التى تعانى نقلها من مكان إلى مكان، ولم نر أمة من أمم النحل تفكر فى دفع عدوان الإنسان على عسلها الذى تتعب وتدأب فى جنيه واشتياره من رحيق الأزهار ونوار الثمار على كثرة ما جربت من غزواته لها، وكل حيوان يعيش فى نطاق ضرورات حياته لا يتجاوزه . فلئن كان قانونا « الانتخاب الطبيعى » و « بقاء الأصلح » أقنومين عظيمين من أقانيم نظرية النشوء والترقى كما يعترف بذلك أنصارها — وصديقى زكى منهم — فهما اللذان وضعا الإنسان هذا الوضع الممتاز ... موضع القمة فى سلسلة الأنواع . وما دام الإنسان استطاع أن يتغلب على سائر حيوان الأرض يستبق منه ما له فيه نفع ويبيد منه ما يشاء ويجد من الطبيعة إقبالاً عليه وكرماً فى إمداده بوسائل التغلب على ما يريد إبادته ولا يصده صاد عن اقتحام الغابات والأجمات والبحار والمناقع للصيد والتلهى بالقتل ... ما دام الإنسان استطاع أن يفعل كل هذا والطبيعة تساعده على فعله فهو إذاً الابن البكر للحياة فى الأرض، وهو المقصود بها بحكم قانون « انتخاب الأصلح »، وهو وارثها لأنه الأقوى ...

سيقول صديقى زكى : « وماذا أنت قائل فى الجراثيم التى تفتك ببدن الإنسان لتعيش ؟ تلك التى إن أفلح فى نزع واحدة منها مما يسكن جوفه باضت له ألوف الألوف من صغارها ؟ »

وأقول : إن مصير هذه الجراثيم مصير غيرها من قطعان الوحش وسائر أعداء الإنسان التى تغلب عليها وتحصن منها وأوشك أن ينظف الأرض من غوائلها ... وإن تاريخ كشفه لها قريب جداً، ومع ذلك استطاع أن يقيم أسباب المناعة منها فى المسكن والملبس والمطعم والمستنشق ... وما دام قد رصد حياتها وعرف أوكارها، وسلط عليها حرساً من المجاهر والمخابير والعقاقير، فهو لا شك واصل إلى التغلب عليها فى سائر البقاع ما دام قد تغلب عليها فى مناطق المستشفيات ودور النقاهة وكثير من المنازل والمدن التى لا تهمل وسائل الوقاية العلمية ...

وإنه لجهاد مشكور وأمر عظيم أن يقتحم الإنسان بعلمه وأدواته هذه المناطق التى عاشت دهوراً وراء نظره وفوق وهمه وتخيله ...

وإنها لعناية من بارئ الطبيعة بهذا النوع أن يعرفه أعداءه واحداً واحداً ويمكن له فى الأسباب حتى يتغلب عليها جميعاً ...

وإنه لبدء حياة جديدة لهذا الإنسان فى الأرض أن يعلم ما ظهر وما بطن وما خفى وما استعلن من هؤلاء الأعداء ...

وأظن يا صديقى أن من السهل على الذى تغلب على أعدائه من الجراثيم الخفية أن يتغلب على غيرها من البراغيث الظاهرة ... تلك التى حسبت واحداً منها جديراً أن يقض مضجعى فأشفقت علىَّ ...

فلتلد بطون الشر والألم ما تستطيع من أطفالها ... فستلد قوانين العلم مقامع ومهالك لهذه الأطفال ...

وإن الأشقياء الهالكين فى الحياة الدنيا هم الكافرون بالعلم وبالإنسان الذى أنتج هذا العلم ...

أولئك الذين يعيشون بأساليب القرون الجاهلة العاجزة، وينظرون إلى الحياة نظر العجز وضعف الثقة بروح الإنسان وعقله، ونظر القاصرين الذين لم يدركوا ذلك النمو السريع للحياة الإنسانية فى مدى قصير جداً من الزمن وهو أربعة آلاف سنة وهى عمر التاريخ الذى نعرفه ...

أولئك الذين لم يدركوا بعد كيف قفز الإنسان فى السنوات الخمسين الأخيرة من عمره قفزات حققت كثيراً من أحلامه فى الانطلاق والسيطرة والإنتاج والاستغلال والتوليد والتقارب بين أجناسه وأقطاره واختزال المسافات والأبعاد وإقامة الأرصاد لحوادث الحياة وظواهر الطبيعة

أولئك الذين لا يزالون يعيشون كما كان يعيش آباؤهم الأولون الذين لم يكونوا يعرفون من الدنيا إلا حدود البقعة التى ولدوا فيها أو القطر الذى ينتمون إليه ... ولم يكونوا يعرفون أن فى الأرض محيطات هائلة وقارات مجهولة وعوالم مستورة، وأن الأرض ما هى إلا كرة صغيرة جداً كذرة رمل فى صحراء ... الذين كانوا يبيتون فى الظلام والبرد، وأنهارُ النور والنار على بعد ضربة معول منهم فى منابع النفط والبترول ... ويعيشون تحت رحمة غيض الماء وفيضه بدون أن يقيموا سداً أو خزاناً يحفظ الماء ويحفظهم من طغيان الماء ... والذين كانوا يأكلون الموت ويشربونه فى المطاعم والمشارب الملوثة بالجراثيم ...

أولئك الذين كان كفرهم بالإنسان وعدم إدراكهم لسموه وتفرده بين سائر الأنواع السبب الأكبر فيما تراه يسود حياته من اصطناع أساليب الحيوان الفاتك الضارى المتشهى الغافل الذاهل عما يدور فى السماء ويجرى فى الأرض من العجائب والمعجزات وأفانين الحياة ...

وما يجر الشر والإثم والسفالة على النفس الإنسانية إلا غفلتها عن مقامها الممتاز فى الحياة، وإلا أخذها بظاهر الحياة الجسمية الآلية التى تجعلها والحيوان فى حظيرة واحدة. وما كان جهاد أنبيائها وحكمائها الذين خطوا بها خطوات واسعة إلى الأمام إلا نتيجة لإدراكهم امتيازها وما فيها من قوى زائدة عما فى غيرها من سكان الأرض ...

وأخلاق العلماء شىء عظيم عميق لأنها أخلاق بنيت على العلم بأعماق النفس الإنسانية. وقد قال سقراط «الفضيلة معرفة، والرذيلة جهل»

والفرق بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد هو مبدأ الفلسفة الألمانية الحديثة التى سنها «نيتشه» للألمان فكان إدراكهم معنى السيادة وحديثهم حولها أكبر باعث لهم على نهضتهم الجبارة التى جعلتهم يفهمون فى أنفسهم أنهم فوق مستوى سائر الأجناس

وأخلاق الإنجليز المبنية على ثقتهم بأنفسهم وتفردهم من بين سائر البشر بطبيعة ممتازة وروح ممتازة هى التى جعلتهم فوق المستوى الإنسانى الحالى فى الصبر والاحتمال والثبات وسعة الحيلة والوقار والسكينة فى السلم والحرب

فهم يؤدون لهذا الاعتقاد وتلك الثقة بالنفس مهرها من الفعال الكريمة والصبر الجميل والدم العزيز والمال المبذول والمساكن المترفة

وقديماً كانت العرب أمة ضائعة المكانة لما كانت مفقودة الإحساس بسمو نفوسها ومواهبها ، مغمورة فيما يحيط بها من الطبيعة ، مدمجة فيها ، عابدة للحقير والجليل منها حتى تسمى أفرادها بأسماء الجماد والحيوان السافل والنبات الحقير : فقالوا حجر وصخر وكلب ويربوع وحنظلة ، إلى آخر أسماء ما يحيط بهم ، وطافوا بالأحجار والأشجار عابدين عاكفين ... فلما أيقظهم موقظهم العظيم لأنفسهم وما فيها من امتياز على سائر ما يحيط بها فلا يليق بها أن تلتمس لشيء من هذا المحيط عبادة ، ولا أن تبتغي إليه زلفى أو وسيلة ، ولا أن تقدم إليه قرباناً من دمائها ودموعها وسائر قرباتها ؛ بل يجب أن تبتغى بذلك كله وجهاً أسمى وقدرة أعظم لا تدركها الابصار ولا تستوعبها الأفكار ... حين هذا بدا السر الخفى فى هذه النفوس الضائعة واستعلن كما يستعلن نور الصباح عريضاً فى الآفاق ، ومضى أفرادها إلى فجاج الأرض حاملين رسالة وموطدين دولة ومقيمين حضارة

وها نحن أولاء نرى « الهندوكيين » يأتون فى عبادتهم للأبقار والحيات وكثير من الحيوان مخازى وسخافات تلطخ وجه الإنسانية بالحياء والخجل والعار ... كل هذا لأنهم توهموا أن فى البقر والثعابين سراً وروحاً مقدساً يعبد ، فتركوها تعيش وتسرح وتهيم فى الشوارع والبيوت والطرقات وهاموا وراءها وأكلوا روثها وشربوا بولها وتقربوا للثعابين ورحبوا بلدغاتها وموتهم بأنيابها وتركوا بلادهم تصاب بطواعين الأبقار التى تترك حتى تشيخ وتصير عشاً للجراثيم التى تنتقل منها إلى عابديها وساكنى بلادها ... والأبقار المسكينة فى ذهول وغفلة عن قربات هذا الإنسان الضال وتقديسه إياها ... فهى تبول عليه وتنطحه ولا تنفعه ...

وهكذا كان الإنسان فريسة للأوهام وعبادة الأحجار والأبقار والجعلان والقطط والحيات وغيرها حين لم يكن مؤمناً بنفسه وطيد الثقة بها ، فاهماً أن جميع ما فى الأرض مخلوق له ومسخر لمنفعته ...

ولست أدرى من منا الذى أوغل فى لغائف الصوفية وشرودها أنا أم صديق زكى ؟

إن صوفيتى مادية تؤمن بالعلم وتعترف بدولة الأجسام ولا تشرد وراء الأوهام ، فلا تتخيل أن الإنسان العظيم الخصيم المبين الفكر المبتكر مخلوق ليكون طعاماً للبراغيث والبعوض والقمل ... وإنما تعلم أن هذه الحشرات مخلوقة لحمل الإنسان على تنظيف جسده وثيابه ومسكنه وبيئته من القاذورات والعرق والأتربة والمناقع الراكدة الآسنة ... فلولاها لأصابه الكسل عن كثير من أعمال النظافة والتطهير والتجميل

وقد كانت هذه الحشرات تعيش فى الأصل على النبات والحيوان ، ثم لصقت بجسم الإنسان وتطورت بلصوقها به . فلا يصح أن يقال إن الإنسان خلق لأجلها ...

وصوفيتى لا تخيل إلى « أن سر الوجود يستعلن فى الجرثومة الضئيلة كما يستعلن فى الإنسان والفرد والأفى ! » كلا ... هناك فروق هائلة بين استعلان قدرة الله فى الجرثومة ذات الخلية الواحدة ذات الوظيفة الواحدة ، وبين استعلانها فى الإنسان ذى الخلايا التى لا عدد لأنواعها وأشكالها وصورها وأوضاعها ووظائفها منفردة وموضوعة فى مجاميع ومنتجة حياة كلية . هو كالفرق بين جزىء صغير فى قالب حجر موضوع فى عمارة من ناطحات السحاب ، وبين العمارة نفسها بما فيها من زخرف وزينة ... وفى هذا التشبيه تجاوز كبير وقياس مع الفارق الهائل . نعم إن الجرثومة شيء ثمين عظيم كأول خطوة فى سبيل الحياة ... ولكنها لن تبلغ مبلغ الإنسان الذى هو آخر خطوات الحياة وحلقتها النهائية كما تقول نظرية النشوء

وما أعتقد أن خالقاً عظيماً حكيماً يخلق كرة أرضية هائلة ، ويجعل فيها رواسى من فوقها ، ويجرى فيها بحارها وأنهارها ، ويقدر فيها أقواتها ليعيش عليها عالم من البراغيث أو النمال أو الثعابين أو الأبقار أو السباع عيشة أبدية بدون خليفة فائق عليها يستطيع أن يضع الحمل بجوار الذئب ، والأسد بجوار الغزال ، وكل عدو بجوار عدوه كما هو الحال فى حدائق الحيوان . إن الحياة حينئذ تكون عبثاً وفيضاً لا يتلقاه أحد يعى ويفكر ويعمل فى الأرض عملاً مجيداً

وإن الصوفية التى تقول بهذا ما هى إلا شرود وراء الأوهام

وعدم الإدراك لغايات الحياة والتمييز بين آفاتها

إنها صوفية كصوفية أبي العلاء المعري المريض شاذ الطبيعة الذي يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا !
كلاهما يتوقى ، والحيـاة له عزيزة ويروم العيش مهتـاجا

ولنتصور الناس جميعاً على مذهب أبي العلاء وبعض متصوفة الهند ... لا يأكلون اللحوم ولا الألبان ولا العسل ولا سائر منافع الحيوان ... ويتركون البراغيث والقمـل والضفادع والعقارب والثعابين وسائر الحشرات ، والسباع والبهائم حرة طليقة في الحياة ما دامت الأرض ميراثاً مشتركاً بينها وبينهم ، وما دامت جميعها مقصودة بالحياة ، وما دام « سر الوجود » قد استعلن فيها استعلانه في الإنسان ... فماذا تكون النتيجة ؟

هي فناء الإنسان بفناء أقواته التي تأكلها قطعان الأنعام والسباع وعراجل الحمير وأسراب الطير والحشرات وغيرها ... هذا إن عاشت وعمرت دهراً ، فإن فنيت فالأرض خراب . . .

* * *

تساءل صـديق على لسان أحد حشراته : من ذا كان يستمتع بكائنات الله في الأرض قبل ظهور الإنسان ؟

وأجيب : كان يستمتع بعضها ببعض ويعيش بعضها على بعض كما هو الحال الآن ... فالسباع تأكل الأنعام ، والأنعام تأكل النبات ، والحشرات يعيش بعضها على النبات وبعضها على الحيوان ...

ولـكن ينبغي أن نعلم ما يقوله العلم من أن الحيـاة الحيوانية على الأرض لم تكن غزيرة ولا كثيرة الأنواع قبل عصر ظهور الإنسان . . . نظراً لقسوة عوامل الطبيعة من الأمطار والثلوج والبراكين والزلازل التي لم تكن تسمح بحياة كائن ضعيف ؛ فلـما استقرت القشرة الأرضية قليلاً وهدأت عوامل الغليان والتشقق ، وصارت الأرض صالحة للحياة ، خلق الله فيها الحيوانات الضخمة الزاحفة ، ثم انقرضت بفعل الزلازل والفيضانات واختلافات الطقس ...

وهكذا الأرض مرت بأدوار وراء أدوار حتى صلحت لحياة هذه الأنواع التي نراها تعمر الأرض ... وكان كل هذا تمهيداً لإخراج ذلك النوع الذي صار خليفة الأرض وفاتح أغلاقها ومخرج أسرارها ...

وفترات التمهيد لهذه الحياة الصالحة المعمرة لا يصح أن يعترض عليها معترض بأنها ضاعت هباء . . . فإن أيام الله ليست كأيامنا تقاس بالسنين الشمسية والقمرية ، بل هي دهور بالنسبة لنا ؛ ولـكنها لحظات بالنسبة للذي خلق الأزمان ويدير الأفلاك دورات هو أعلم بمقدارها ... والله أعلم متى ينضج الثمار !

* * *

زعمت فراشة الأستاذ أن علم الإنسان وأخلاقه هما سر تبجحه ودعواه الامتياز ، مع أن علمـه يكمل النقص الذي في غريزته وفطرته ، ومع أن أخلاقه في مثلها الأعلى التي تحلم به هي دون ما يسود ممالك النمل والنحل من أخلاق ...

وأنا أنكر إنكاراً باتاً أن يكون في غرائز الإنسان نقص يحتاج إلى تكميل ، وأن يكون العلم هو هذا المكمل . . . وإنما أرى أن غرائزه التي تضمن له حياة آلية رتيبة كحياة أنواع الحيوان ، غرائز كاملة يستطيع أن يعيش بها في مفتتح حياته وتكفيه ... فإذا نظرنا للعلم على أنه نتيجة لغريزة حب الاستطلاع فهو إذاً أثر من آثار هذه الغريزة ، ولـكن لا يقال إنه تكميل لها إذ لا نقص فيها ...

فالعلم نتيجة لهذه الغريزة كما أن الولد نتيجة للغريزة الجنسية . وحب الاستطلاع غريزة مشتركة في جميع أنواع الحيوان ، ولـكنها فيما عدا الإنسان محدودة بحدود ضرورات حياة الأنواع وفي الإنسان لا حد لها . ولذلك أنتجت للانسان علماً زائداً عما يحتاجه وعما يمكن أن يدركه أي حيوان . وهذه القابلية الطبيعية الدائمة في هذه الغريزة هي التي أنتجت نمو علم الإنسان وفكره ونمو الحياة به دائماً . . .

والإنسان الفطري المحدود الذكاء يكاد يعيش بالغريزة وحدها فهو لا ينوع ما ورثه من الحياة ولا يزيد عليه ولا ينقص منه . وهو مع هذا يحيا وينمو وسط الأهوال . . .

فغرائز الإنسان التي تكفل له حياة كحياة الحيوان غرائز كاملة يحيا بها حياته الضرورية

أما العلم فيفتح له أبواب حياة خاصة منفصلة عن حياة الطبيعة . . .

فالقول بأن علم الإنسان يكمل النقص الذى فى غريزته وفطرته قول غير مفهوم . . .

وأما أخلاق الإنسان الحالية فلم أدافع عنها بل نعيت عليها واعترفت بفسادها وقصورها إلا فى قليل من الأمم وهى التى أدركت أن للحياة الإنسانية قوانين تشبه قوانين الطبيعة فى صرامة عقابها لمن يخالفها . . .

واعتقادى أن الدولة كائن عضوى يسرى عليه ما يسرى على أى جسم ذى أعضاء من وحدة المنفعة والضر ... الدولة كالجسم الواحد لا يصح أن يترك فيه شىء فاسد ولو كان ظفراً وإلا فسد كله ... ولا يليق أن يكون فيه عضو مريض وآخر صحيح بل يجب أن يصح كله ...

والقلب فى الجسم يقذف الدم إلى كل خلية لتحيا ، وكذلك يجب أن يقذف قلب الدولة إلى كل فرد فيها غذاء الجسم والفكر والروح ليحيا الحياة الكاملة

والفكر فى الجسم الواحد حارس يقظ أمين يتلق الرغبات ويصدر الأوامر ، وكذلك يجب أن يكون قادة الأمم والمسيطرون عليها ...

فأنا لم أشد بأخلاق الإنسان الحالية وإنما أشدت بعلومه وفتوحه فى مجاهل الكون ، وأريد من وراء هذه الإشادة يقظة النفس المادية الدائرة مع الحديد البليد القاسى فى غير وعى وإحساس إلى آثارها وتفردها بين الكائنات حتى تعلم وضعها الصحيح ...

والواقع أن أخلاق الإنسان لم تتطور كما تطور علمه وفكره ، بل لا يزال يعيش بمواريث التاريخ السيئة الملوثة ، ولم يجد له زعماء انقلاب فى روحياته ، كما وجد زعماء انقلاب فى مادياته ...

فالانقلاب الجسمى والآلى والصناعى فى حياة الإنسان لم يصحبه انقلاب نفسى يجعله يصفى تركات الماضى فى الأخلاق ويتحرر من مواريث التاريخ السيئة ويقيم حضارة روحية تناسب هذه الحضارة المادية التى أقامها فى مدى السنوات الخمسين الأخيرة .

ولو آمن الإنسان بالإنسان وأدرك مدى الرحلة التى رحلها فى الحياة والخطوات التى سارها فى التاريخ ومركزه بين الكائنات تكليفه فى الأرض خلف الله على تجميع مقدراتها ، وصنع فيها موجودات فاقت نماذج الحيوان فى الدقة والاحتمال والسرعة والخدمة آلاف الأضعاف ، وعرف أن الله ما كان ليعطيه هذه القدرة العظيمة على الصنع والإنشاء والافتنان إلا وهو به حَفِيّ، وعليه متفضل ، وله مكرم ، وإياه مسدد وموفق ، ولتطوراته مرتقب ومنتظر بلوغه رشده ؛ لو آمن بهذا كله لأسرع إلى إقامة الحياة على ما أقام الله الطبيعة عليه من العدل الموزون والرحمة السابغة والتوزيع الكريم ، فإذا لم يذهب الإنسان إلى هذا طائعاً مختاراً كما فعلت أمم الشمال فى أوربا ، فسوف يذهب إليه مكرها بالحديد والنار فى يوم أحسبه قريباً ...

* * *

ملء يدى الاثنتين نصوص من القرآن تثبت أن جميع ما فى الأرض خلقه الله للانسان وخوله إياه واستخلفه عليه وجعله متاعاً وتذكرة له ، ولكننى آثرت أن أقدم حججاً من الفكر الطليق والنظر الحر والعلم المصرى حتى لا يقول قائل من المنكرين المفتونين : أساطير الأولين ...

عبد المنعم خلاف

العلم يخطو بسرعة فى خدمة الانسان

الموسيقى والغناء والحروب

للأستاذ محمــود البشبيشى

لا تستطيع النفس أن تتخلص من مشاعرها وعواطفها لأنها بضعة منها ، بل إن الشعور والعاطفة هى الحياة نفسها ... وما تحسب من الأعمار أيام تمر من غير أن يشعر بها الإنسان ولا يصيبه فيها ألم أو فرح ... وإذا كانت الحياة هى الشعور بما فى الحياة كانت مصادر الشعور من أسس الحياة التى لا سبيل لإنكار وجودها ؛ ومن هـذه المصادر : الجمال ، والشعور به هو عاطفة الحب والوفاء ، والوطن ، والشعور به هو عاطفة الحنين والفداء

وليس فى مقـدور الإنسان وقد خلق وفى نفسه تقدير الحسن من الأشياء ، ألا يعجب به ويتأثر . . . بل إن الإنسان إذا فقد هذا الشعور فقد معه صفة الإنسانية ، وأصبح كالصخر يحتضن الزهر والشوك ولا يفرق بين رقة هذا وغلظة ذاك . . .

تمر الصور بالإنسان فيتأثر بها ، وقد يزداد هـذا التأثر فيصير حباً يلازمه ، فيتعلق بها تعلق روح وقلب . فإذا فارقها تعلق بهـا تعلق ذكرى وحنين . وإذا طال الفراق ، وتمرد الشوق ، صاغ أشـواقه نغماً ورتلها نشيداً ؛ وإن ذلك منه لهو الوفاء بعينه ، الوفاء الذى ضاق بأسلوب الحديث والكتابة . نخرج فى أسلوب منغم منظم أصدق فى التعبير عما فيه من عاطفة روحية من كل الأساليب

ومن هنا كانت الموسيقى والغناء !

كانت الموسيقى وليدة الإعجاب بالشىء ، فهى شعور وعاطفة نحو هذا الشىء . وكذلك الغناء ، كانت الموسيقى تعبير الروح الذى عجز عن عرضه اللسان بلغة الكلام ، فهى إحساس روحى نبيل لا سبيل للخلوص منه ، وكذلك الغناء

الموسيقى إذن من مادة الشعور والعاطفة والروح ، وليست من مادة الفكر والمنطق والاجتماع ... ومن ثم لا يعقل أن نقيدها بموازين الفكر والمنطق والاجتماع . وكذلك الغناء . فمثلاً مما يقع تحت النقد الدعوة إلى تثبيط العزائم وقت الحروب . ومما يقع تحت النقد تنفير الناس من الجهاد بأساليب الخوف والتهاون

ومما يقع تحت النقد اشتغال القوم بالنظريات الفكرية والجدل والخطر يتوثب ! كل هذا قد ينتقد لأن من ورائه الضرر

ولـكن ليس من المعقول أن ينتقد التعبير الموسيقى فى مختلف صوره الوجدانية وكذلك الغناء

لأن الموسيقى من الشعور ، والشعور فوق القيود ، بل هو قيد اتجاهات الحياة فينا

فقـد يجوز أن تنتقد فكرة أو رغبة أو طريقة حياة وعمل ، لأن العقليات صاحبة الحـكم هنا ، تتفاوت وتتباين . يجوز هذا ولا يجوز أن تنتقد وتنكر أو لا تقبل قطعة موسيقية وجدانية ، لأن المشاعر والأحاسيس تتلقاها ، إما بعاطفة الطرب للنغم ، أو بعاطفة الحنين والذكرى ؛ والمشاعر فى الحالتين محتاجة لها

ومن ثم لا يجوز لـكائن من كان أن ينكر أناشيد العاطفة وموسيقى العاطفة فى زمن الحروب

لأنها صورة من صور الروح الإنسانية ، وعبير من مشاعرها ولون الحياة فيها ، ولا يمكن أن تقيد أو تفقد ... بل من العار أن يتجرد الإنسان منها ، لأنه حينئذ يتجرد من آدميته — وإن ظن بعض الناس غير هذا — إنه لو تجرد منهـا فقد أصبح لا يقيم لحوادث الحياة وزناً ، وساء تقديره لمؤثرات العيش ... فلا حظ يحركه ، ولا حزن يؤرقه ، ولا فرح يطربه ، ولا شوق يقلقه . وغاية القول أنه لو تجرد من عواطفه التى تطرب للنغم الوجدانى فى كل زمان ومكان ، سقط من سجل الوجود ، لأنه حينئذ لا يتأثر بما يدور فى المجتمع وما يطرأ عليه من تقلبات الحياة

أجل ، إن من لا تتأثر عواطفه ، وتتحرك مشاعره ، ومن لا تكون فى نفسه عقيدة الحب لا يكون جديراً بالحياة ولا تنتظر منه المنفعة ، ولا يكون فيه رجاء وغناء . وكيف وقد انفصل عن كل شىء ، فلا تربطه عاطفة بشىء ! !

يا قوم إن موسيقى العاطفة والحب تلهب فى النفس الحنين وتؤجج الشوق . واشتداد الحنين والشوق إلى المحبوب مثلاً يكون فى الجندى خاصة ألواناً من المثل العليا منها الرغبة فى حماية هذا المحبوب لتدوم له السعادة به ، وحمايته تقتضى حماية الوطن لأنه منه ، وما الوطن إلا موطن الأهل وروض الأحبة

ومن هذه المثل الشعور بالعاطفة الروحية التى تربطه بالمحبوب .

وإن هذه العاطفة نفسها لصورة مصغرة لما يربطه بوطنه الذى يرتع فى ظلاله ويحب

وحقيق بالذى ينجذب إلى محبوب ويحس بعاطفة روحية نحوه ، ويميل إلى حمايته أن ينجذب إلى الوطن ، وتتغلغل عاطفة الوفاء له فى نفسه ، ويجد نفسه مدفوعاً إلى حمايته ، لأنه بذلك يحمى الأحبة فيه

وقد تكون الأغنية الوجدانية أشد أثراً فى إشعال حمية المحارب من أى مؤثر آخر ، لأنها تحرك فى نفسه رغباته ورغبات الأحبة ، وتهيج أشواقه وأشواقهم ، وتصور آماله وآمالهم ، فيستميت فى القتال رغبة فى النصر ، ويرد الموت حباً فى الحياة ، بل حباً فى العودة إلى الحبيب قاهراً لا مقهورا

والموسيقى فى حالة الحرب والسلم ترتفع بالإنسان عن عالم الأرض فيحتقر الأغراض والشهوات ، وتصوغه فى قالب روحى نبيل ، يجعله يرى الحياة بعين الروح التى لا تقيم لعرض الدنيا وزناً ، ولا تهتم إلا بصيانة الشرف والكرامة

ومن عظمة الموسيقى الوجدانية خاصة أنها تخاطب كل النفوس لا فرق بين كبير وحقير ، لأنها تخاطب الروح المشترك فيهم . ومن هنا يكون أثرها فى تهذيب الاحساس أعظم خطراً من كل المؤثرات المادية ومن الترهيب والترغيب

وليس هناك عيب فى أن جندياً يتغنى بأغنية حب . . . بل العيب فى أن يتجرد الجندى من معنى القلب فلا تكون له صفة غير صفة إراقة الدماء ولو فى الدفاع عن النفس . إنك حين تقول للجندى : يا لك من رجل لا يعرف غير القتال ، تجرده من كل معانى الحياة ؛ ولكنك لو قلت له : يا لك من رجل جمع بين حاجات القلب والدفاع عن حاجات القلب ، وألف بين نزعات الروح والدفاع عنها . . . إنك لو قلت له هذا ترفعه إلى مرتبة البطولة والروحانية

ليس فى الأمر كارثة ، ولن تكون فيه كارثة ، بل إن فى الأمر طبيعة . . . وطبيعة فطر عليها المصرى فلا سبيل لفك قيودها لأنها فيه وهو فيها

عجباً أى عجب ! ماذا يريدون من المصرى أن يغنى ؟ أنشيد القوة ؟ ولم يفسر لنا أحدهم معنى تلك القوة . وكيف يكون الغناء قوة وهو فى طبيعته محاولة تحكم فى مخارج الصوت بالعواطف الرقيقة ، فلا يخرج لفظ إلا وقد مسحه المغنى بيد العاطفة فخرج فى ثوبها الرقيق الأنيق الندى

ليس فى الأمر كارثة ولن تكون فيه كارثة

ولغة الغناء فى مصر وعاطفة الغناء الرقيقة « المتهمة عند بعض الفضلاء » هى لغته وعاطفته فى المغرب ، والهند ، وسوريا ، وفلسطين ؛ ثم هى نفسها عند الأتراك . وغاية القول أنها مشتركة فى جميع بلاد الإسلام ... فما السر فى ذلك ؟ والبحث وراء هذا السر هو الذى يجب أن يكون مجال القول ... وكل ما عداه ضرب من الأوهام والأباطيل

السر فى ذلك هو أن الإسلام طبعها بطابع الروحانية الرقيق النبيل . وكان القرآن الكريم أعذب ما يكون ألفاظاً يترنم بها ويتغنى . ومن منا لا يسبح فى عوالم روحانية إذا مسه سحر من ترتيل « الشيخ رفعت » ؟ ومن من هؤلاء الدعاة يدلنا على طريقة أوقع أثراً فى النفس من هذه الطريقة الرقيقة فى ترتيل القرآن ؟ أوليس القرآن حافلاً بأبلغ معانى القوة وأبلغ معانى التوسل والدعاء وأبلغ معانى الوعيد ؟ ... ولماذا ترى الناس يتلونه فى نغم رقيق نبيل ؟ ولماذا يشتد أثره وفعله إذا تلى كذلك وهو العظيم الأثر البالغ الغاية ؟ ؟

السر فى ذلك هو الوصول إلى مخاطبة الشاعر والروح قبل مخاطبة العقل ، فيتذكر الإنسان ويتعظ ... فتلك العاطفة النبيلة للضغط على النفوس ، هى العاطفة التى سار على هديها الغناء فى الشرق كله ، وسلكت موسيقاه سبيلها . ومن هنا كانت الأغنية الوجدانية تدخل على النفس برقتها ، فتهيج أشجاناً ، وتحرك عاطفة ، فيتذكر الإنسان المعهود ويرتبط بالوفاء ، ذلك الخلق النبيل السامى ... وحين تكون الذكرى متصلة بالوفاء ، يكون من ورائها الخير كل الخير والفداء والتضحية

... ليس فى الأمر كارثة ، ولن يكون فيه كارثة ، لأن الأغنية منتزعة من صور الطبيعة المصرية السهلة الباسمة ... هنا النيل ينساب فى حلم كأنما يخشى أن يوقظ الشاطئ الحالم ! والسماء أصفى من ضمير الوليد ... ليس فى مصر براكين ثائرة ، وليس فى مصر جبال شاهقة وعواصف وأنواء ...

فكيف تنكرون أن يكون فى الموسيقى هذا الصفاء وتلك الرقة ؟ غيروا الطبيعة نفسها قبل أن تغيروا العواطف الصادرة عنها

من الغريب أن يعيب إنسان على جندى مصرى أنه يتغنى بأغنية حب ، وما علم أن هذا الجندى مقبل فى يوم من الأيام

من فصول كتاب « الديارات » للشابشتي

٢ - دير مـــديان

للأســـتاذ صلاح الدين المنجد

... ونرجع إلى ذكر إسحاق بن ابراهيم ، ونورد طَرَفاً من أخباره فى حزمه وضبطه بقدر ما يليق بالكتاب

إسحق هذا هو ابن طاهر بن الحسين ، ويكنى أبا الحسين ، وكان المأمون اصطنعه وولاّه خلافة عبد الله بن طاهر بحضرته لما أخرج عبد الله إلى خراسان . وكان أشد الناس تقدّماً عنده واختصاصاً به . فذكر عبد الله بن خرداذبَة أنه حضر مجلس المأمون يوماً وقد عرض عليه أحمد بن أبى خالد رقاعاً فيها رقعة قوم متظلمين من إسحاق بن ابراهيم ؛ فلما قرأها المأمون أخذ القلم وكتبَ على ظهرها : « ما فى هؤلاء[١] الأوباش[٢]

(١) فى الأصل : هولا وهو تحريف

(٢) الأوباش من الناس الأخلاط مثل الأوشاب وهو جمع مقلوب من البوش

إلاّ كل طاعن واش . إسحاق غرسُ يدى ، ومَنْ غرستُه أنجب ولم يخلف[١] ، لا أعدى عليه أحداً[٢] . » ثم كتب إلى إسحاق رقعة فيها : « من مؤدب مشفق إلى حصيف متأدب . يا بنى ! من عزّ تواضع ، ومن قدر عفا ، ومن راعى أنصف[٣] ، ومن راقب حذر ، وعاقبة الدالة غير محمودة ، والمؤمن كيّس فَطِن والسلام . »

وذكروا أن بعض ولد الرشيد - وكان له موضع من النسب ومكان فى المعرفة والأدب - مرض ببغداد مرضاً طال ، ولم يقدر على الركوب ، واشتهى التفرج والتنزه فى الماء ، فأراد أن يبنى زلاّلا[٤] يجلس فيه فنمه إسحاق وقال :

« هذا شيء لا نحب أن يُعمل مثله إلا بأمر أمير المؤمنين »

فكتب إلى المعتصم يستأذنه فى ذلك ، فخرج الأمر إلى إسحاق بإطلاقه له . فكتب إسحاق : « ورد علىّ كتاب من أمير المؤمنين بإطلاق بناء زلاّل لم يحدّ لى طوله ولا عرضه ، فوقفت أمره إلى أن أستطلع الرأى فى ذلك ... » فكتب إليه يحمده على احتياطه ويحد له ذرع الزلاّل

***

قال أبو البرق الشاعر : كان إسحاق يجرى علىّ أرزاقاً . فأنشدته يوماً ؛ فسألنى عن عيالى وما أحتاج إليه لهم . ثم قال لى : يحتاج عيالك فى كل شهر من الدقيق كذا ، ومن كذا كذا ... فما زال يخبرنى بشيء من أمر منزلى كثير جهلته وعلمه هو

***

وذكر أبو حشيشة الطنبورى قال : كنت يوماً فى منزلى إذ طَرَق البابَ صاحبُ بريد وقال : أجِبْ . فلما قال أجِبْ علمتُ أنه أمرٌ عال . فلبست ثيابى ومضيتُ معه حتى دخلنا دار إسحاق بن ابراهيم . فعُدِل بى إلى ممر طويل فيه حُجَر متقابلة ، تَفوح من جميعها روائحُ الطعام . فأُدخلتُ حجرة منها ، وقُدِّم إلىّ طعام فى نهاية النظافة وطيبِ الرائحة ، فأكلتُ . وجاؤونى

(١) من الاخلاف ، يقال أخلف ما وعده ، هو أن يقول شيئاً ولا يفعله فى المستقبل

(٢) أى لا أجعل أحداً يسمو عليه

(٣) كذا فى الأصل ولعلها « رعى » ولكل وجه

(٤) الزلال : ضرب من السفن

على الموت ... فمن الرحمة بنفسه أن يعيش على عبير الذكرى ...

لقد أدركت بريطانيا العظمى خطر الموسيقى وخطر الغناء واللهو البرىء فى إيقاظ عواطف الجنود ، فأنشأت فى مصر أماكن خاصة (كفندق التروبوليتان) ، تعرض فيها عليهم شتى أنواع الأغانى والموسيقى واللهو الطاهر ...

فعلتْ هذا لأن الخير فيه عظيم : فهى تعرض عليهم الأنشودة لتلهب فيهم الذكرى والحنين ... فيشتد الوفاء ، وترتبط أرواحهم بأرواح الأحبة فى الوطن ...

ومن ثم يكون الشوق إلى العودة ظافرين . وليس الأمر ببعيد ، وها هى ذى صفحات التاريخ العربى المجيد ، ترينا كيف كان العرب فى أشد المواقف حرجاً ، وفى ظلال السيوف والرماح يتغنون بذكرى الأحبة . وكفى أن نتذكر قول عنترة فى معلقته :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

« المنصورة » — محمود البشبيشي

بثلاثة أرطال فشربت ، وأحضرونى صندوقاً فيه طنابير ، فاخترت طنبوراً منها وأصلحته على الطريقة ، وأُخرجتُ من الموضع إلى حجرة لم أر أحسن منها ، وإذا فى مجلسها رجلان على أحدهما قباء ملحم وقلنسوة سمورية[1] ، وعلى الآخر ثيابُ خزٍّ وستارةٌ مضروبة . فسلّمتُ وأُمرتُ بالجلوس ، فجلستُ . فقال لى صاحب السمورية : غنّ ، فتغنيتُ :

ما أرانى إلا سأهجرُ مَنْ لَيـــس يرانى أقوىٰ على الهجران
ملّنى واثقاً بحُسْــن وفائى ما أضر الوفا على الإنسان[2]

فغنيته فشرب رطلاً ، ونقر الستارة وقال : غنّوه . فغنى الصوتَ أحسن غناء فى الدنيا ، وخِلتُ أن البيت يرقص ! . فقال لى : كيف ترى ؟ قلت : والله يا مولاى بغّضوا إلىّ هذا الصوت وسمّجوه فى عينى . فضحك واستعادنيه ثلاث دفعات ، فشرب فى كل دفعة منها رطلاً . ثم قال : أتعرفنى ؟ قلت : لا ، قال : أنا إسحاق بن ابراهيم ، وهذا محمد بن راشد الخناق[3] ووالله لئن ظهر حديث هذا المجلس منك لأضربنك ثلاث مئة سوط . قم ، إذا شئت . فقمت من بين يديه ، فلحقنى الغلام بصرة فيها ثلاث مئة دينار فاجتهدت أن يأخذ منها شيئاً ، فأبى .

وذكر عمرو بن بانة قال : وجه إلى إسحاق بن ابراهيم فى آخر النهار . . . فصرت إلى داره ، وأدخلت عليه وهو جالس فى طارمة[4] ملبسة بالخز على دجلة ، وقد انبسط القمر على الروشن[5] وعلى دجلة ، وهو من أحسن منظر رأيت قط ، والمغنون جميعاً بين يديه . و (بذل) جالسة وراء مقطع فى الطارمة . فلم يزل جالساً بموضعه ونحن بين يديه إلى أن نودى بالفجر ، فقام وقمنا . وقال لنا الغلمان : انصرفوا ، فنزلنا إلى الشط ودعونا بسميرية[6] فجلسنا فيها جميعاً ، وقلت لهم : إن منزلى أقرب من منازلكم فاجعلوا مقامكم اليوم عندى ففعلوا و . . .[1] فى المنزل ؛ فطلبت فيه شيئاً يؤكل فلم أجد : فأمرت بإحضار المائدة ، فأحضرت فارغة ، وطرحت فى وسطها مئة درهم صحاحاً وقلت : يوجه كل واحد فيشترى له ما يريد . فما كان بأسرع من أن امتلأت بكل شىء . . . فأكلنا وشربنا ، ومرّ لنا يوم طيّب ، وتفرقنا فى آخر النهار ، وفى قلوبنا غصص مما فعله بنا إسحاق ، وما فاتنا من تلك الليلة الحسنة فى ذلك الموضع الحسن . فمضيت بعد ذلك إلى « بذل » وسألتها عن السبب فيما فعله . فقالت : قد سألته عن ذلك فقال : ويحكِ أنا أشتهى الشرب فى مثل هـذه الليلة منذ سنة وأواقع[2] نفسى به . فلما حصل لى جميع ما أريده واشتهيته أردت أن أرى نفسى سلطانى عليها ، وقهرى لها ومنعها مما تحبه لئلا[3] تعودنى إلى ما تريد ففعلتُ ما رأيت

وكان مع ذلك حسن المروءة كريم النفس فذكر أبو حشيشة الطنبوريّ قال : دعانى فى بعض الأيام فصرت إليه وجلست أغنيه ، وعليه درّاعة خز خضراء لم أر أحسن منها قط . فجعلت أنظر إليها ، وفطن لنظرى[4] فدعا بالخازن وقال : كانوا جاؤونا منذ أيام بعشرة أثواب خز خضر ، هذا أحدها ، فجئنى ببقيتها . فأحضر تسعة أثواب يتجاوز حسنها كل وصف فأعطانيها ، فبعت من رذالها الثوب بمئة دينار

* * *

وكان المأمون يصير إليه فى داره ، فيقيم عنده الأيام هو وغلمانه وحشمه أنساً به وثقة بمكانه[5]

(دمشق) صبوح الدبه المنجد

(١) لعلها نسبة الى السموه : دابة يتخذ من جلدها فراء

(٢) الشعر للعباس بن الأحنف . وقد ورد كذا فى الديوان (طبعة الجوائب بالآستانه) . وفى الأغانى : ج ٧ : ٢٩٩ (دار الكتب) :
قد حدا بى إلى الجفاء وفائى ما أضرّ الوفاء بالانســـان

(٣) نديم ومغن

(٤) بيت من خشب يبنى كالقبة (القاموس والأساس)

(٥) الروشن : مكان عال مشرف وكأنه « الشرفة »

(٦) السميرية : ضرب من السفن (اللسان) وفى (تكملة إصلاح = ما تغلط فية العامة) للجواليقى ما يلى : « وهى السميرية لضرب من السفن بالياء ، وهى منسوبة إلى رجل يقال له سمير أظنه كان بالبصرة وهو أول من عملها فنسبت إليه ، ولا تقل سمارية فانه خطأ » ، (التكملة للجواليقى مطبوعات المجمع العلمي العربى وتحقيق التنوخى ص ١٩١)

(١) كلمة مبهمة : ولعلها فى معنى : اقنا

(٢) فى الأصل أدافع وهو تحريف . وفى القاموس أواقعه : أحاربه وهو المقصود هنا

(٣) فى الأصل : ليلا وهو تحريف

(٤) فى الأصل : فطن بنظرى ، والأولى فطن لنظرى يقال فطن للأمر (الأساس — والقاموس)

(٥) روى الشابشتى طرائف كثيرة من اسحاق انتخبنا منها ألطفها وأبينها

الانتاج الأزهرى

للأستاذ عبد العزيز محمد عيسى

« إن الأزهر إذا أصلح كان بثقافته أهدى إلى تربيتنا من أية جامعة . » (الزيات)

[افتتاحية الرسالة فى عامها التاسع]

عادت الرسالة الغراء إلى العناية بالشئون الأزهرية على دأبها ، بعد ما عادت الحياة إلى الأزهر أثر إجازته الطويلة ، وبعد ما اطمأن الأساتذة والطلاب إلى موضوعاتهم وساروا فيها شوطاً ليس باليسير . وعدت أساهم مع الكاتبين ، وألقى بدلوى فى الدلاء ، ولسنا نبتغى من وراء ذلك – علم الله – إلا الخير لهذا المعهد المبارك الذى نرجو أن ينال من الإصلاح ما يتمناه المحبون المخلصون .

وفى النفس حاجات ، وللقلب خفقات ، إذا ما ذكر إصلاح الأزهر وجرى على الألسن . ولكننا نقف فى كلمتنا اليوم عند الحديث عن الإنتاج الأزهرى لتردده على أقلام الكاتبين

فقد نغمط الأزهر حقه إذا وقفنا بالإنتاج عند ما كان من جماعة كبار العلماء وجعلنا ذلك الأساس الذى يبنى عليه التقدير والاعتراف بشخصية الأزهر العلمية . ونحن لا نؤمن بأن إنتاجهم يمثل هذه الشخصية ، وإنما يمثل شخصياتهم أنفسهم ومدرسة تلقوا عنها وعقيدة فى التحصيل والتأليف درجوا وما زالوا عليها

وسواء لدينا أنشر إنتاجهم أم لم ينشر فرسائل كثير منهم على ما نعتقد صورة أريد بها تبرير الرسميات ، وأغلب الظن أنها لا تعدو فى الجودة رسائل المتخصصين إن لم تكن الأخيرة أفضل من بعضها . فمن الغبن الكبير إذن أن نجعل إنتاج هذه الجماعة دليلاً على شخصية الأزهر العلمية

وفى الأزهر غير هذه الجماعة طائفة مهما قل عددها لها استقلال فى البحث والتفكير، ولها حرية فى الرأى والنقد وأبحاث قوية نشرت وتداولتها الأيدى ، وهذه الطائفة من غير شك — لاعتراف الجميع بها — تمثل الأزهر الناهض من الناحية الفكرية ، وهى بحق أولى أن تدل على شخصية الأزهر العلمية

قد يكون من الإحراج أن نقصر الإنتاج على إبداء رأى خاص فى مشكلة من مشاكل العلم . ولو أننا فعلنا ذلك لكان كل ما نسميه الآن إنتاجاً للأزهر وما عدا الأزهر غير إنتاج ؛ أو لكانت كثرته الغالبة على هذا الوصف .. ولم لا نعد الإنتاج المدرسى إنتاجاً متى كان قائماً على الشخصية والتصويب أو التخطئة لما للعقل فيه مجال ، والمناقشة للموروث والتعقيب عليه ؟ أليس ذلك هو الاستقلال فى التفكير والإعلان للرأى الخاص بعد الدرس والبحث ، وإذن فى الأزهر إنتاج قل أو كثر

هناك فرق بين الإنتاج والقدرة عليه وإن كان أحدهما لازماً لصاحبه وأثراً من آثاره . ومما لا شك فيه أن هذه القدرة على الانتاج موفورة لدى الكثير من رجال الأزهر وإن لم يظهر الانتاج الفعلى إلا من قليل منهم

وإذا أنت سألت عن السبب فى إحجام الكثير عن الانتاج فلا يستطيع منصف أن يجيبك إلا بأن فقدان التشجيع والاغراء من ناحية القائمين بالأمر فى الأزهر هو السبب الوحيد لذلك . فهم قد رأوا إخواناً لهم حاولوا أن ينتجوا بل أظهروا صوراً من إنتاجهم كان معترفاً بها ؛ ولكن أحداً من الرجال الرسميين لم يقل لهم إنكم أحسنتم ، ولم يشجعهم بكلمة تجعلهم يدأبون على مثل هذا العمل أو تجعل غيرهم يسير فى طريقهم . فخير لهم إذن ألا يسيروا فى طريق لا يحمد السائرون فيها

إن الأزهر يطلب من علمائه أن يكونوا منتجين ، وأن يعرضوا علمهم لناشئة الجيل الجديد فى صور تلائم جيلهم ، ولكنه لا يأخذ بأسباب ذلك . فهو مثلاً لا يأخذ بسنة وزارة المعارف فيعلن عن حاجته إلى الكتب اللازمة لتحقيق مناهجه ، ويشترط فيها ما يشترط من نظم وتوجيهات ، ويجعل ذلك كل عام أو عامين أو أكثر ليكون له من ورائه ثروة طائلة من الإنتاج سواء فيما يقرره من ذلك أو فيما ينشره أصحابه على الناس ليوازنوا بينه وبين ما اختير

إنه لو فعل ذلك لزرع فى نفوس علمائه الاستقلال فى الفكر والجهر بالرأى والصراحة فى الحق — وهى أهم مقومات الإنتاج الصحيح — ولقضى على فكرة اعتقاد عجز العلماء عن مسايرة الحياة الجديدة وعن الخروج عما درسوه من كتب وعبارات

أليس من العيب أن يظل الأزهر إلى الآن يقرأ فى سنتيه الأولى والثانية الثانويتين كتباً فى البلاغة لمعاصرين من غير

الأزهريين وفيه مائة من المتخصصين فى البلاغة كل واحد منهم قادر على أن يخرج كتاباً مثلها إن لم يكن أفضل منها!

لا تقل أيها القارئ بعد ذلك مالهم لا يؤلفون ، فإن عدم التشجيع كما قدمنا وعدم الإغراء بتقرير الكتاب أو بشراء حق التأليف أو ما إلى ذلك هو الذى صرفهم فكان سبباً مهماً فى قلة الإنتاج ؛ ولو أن هذا الباب فتح لجاءت كتب كثيرة ولنشرت أبحاث ينبغى أن تحسب فى إنتاج الأزهريين كما حسب مثلها لغيرهم

أو ليس من العيب كذلك أن يقرر الأزهر فى أقسامه الثانوية كلها كتاب فى تاريخ أدب اللغة لفظته وزارة المعارف منذ زمن طويل ؛ وفيه كذلك مائة أو يزيدون من المتخصصين فى أدب اللغة ! وليس ذلك لعجزهم عن إخراج أفضل منه ، فقد برهنوا على انتفاء ذلك عنهم ، ولكن لاعتبارات أخرى على نحو الاعتبارات التى أشار إليها صديقى الأستاذ الدنى فى مقاله « السياسة التوجيهية فى الأزهر » عدد الرسالة ٣٩٣

ففيم كان يضيع هؤلاء وأمثالهم سنى تخصصهم إذا لم يستطع أحدهم أن يؤلف كتاباً يرضى به منهج الدراسة ويعلن به رأيه فى هذه الموضوعات الأدبية مثلاً التى لا ينبغى أن يعتقد الإنسان فيها رأى غيره ، ولا أن يلقن الطلاب فيها عبارات كتاب بعينه

ذلك عيب واضح يشكو منه الأساتذة والطلاب جميعاً .

ونحن إذ ندل عليه نرجو أن يلتفت إليه القائمون بالأمر فى الأزهر فيعملوا على تلافيه وإبعاده حتى لا يظل الأزهر كلاً على غيره فيما تخصص فيه أبناؤه وعطلوا أنفسهم سنوات للعناية به ومعرفة مناهج بحثه

ونستطيع أن نقول مثل ذلك فى كثير من مواد الدراسة ، فإنها تقرأ فى كتب لا صلة لها بالعقلية الحاضرة ولا بالأسلوب المألوف . ومن الخير كل الخير أن يعدل عنها إلى ما يوافق ذلك وأن يوسع المجال للمستطيعين وتعطى الفرصة لهم . ولست أقصد بذلك — طبعاً — إلى عيب هذه المواد والتنقيص من قيمة كتبها . ولكنى أعتقد أنها جعلت لزمان مضى ، فمن الجائز أن يصلح بعضها لزماننا ، وأن يتعارض بعضها الآخر معه فلنبق على ما يصلح ولندع ما عداه . فإننا إن لم نفعل ذلك صدق علينا أننا نعيش فى عصر غير العصر الذى يعيش فيه الناس

على أنه مما يسوق الانتاج الأزهرى ويقف فى سبيله أن الدراسة فى الأزهر ما تزال تلتزم « طريقة الكتاب » . فأنا كمدرس حريص على أن أهضم عباراته وأساليبه : السائغ منها والملتوى ، وأفهم ذلك الطلاب كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ما له ضرورة وما ليس له ضرورة ، لأنه فى الكتاب المقرر ، والطالب أمامى يهتم بذلك ويوليه عنايته ، لأنه يرى شبح الامتحان مخيفاً ، ويرى أنه لا ينجيه منه إلا أن يفهم كلمات الكتاب ، وكلما تمثل له هذا الشبح فى أثناء (الحصة) حقق ودقق وأخذ وأعطى وفكر وقدر

وعلى فرض أنه لا بد من ذلك فى بعض المواد ، فإننا لا نعدل فى بعضها الآخر إلى « طريقة الموضوع » ، لتمكن المدرس من الجمع والتحصيل والإبقاء والإلغاء ، فيظهر بذلك شخصيته ويظهر إنتاجه واستقلال فكره . ألا إننا لو فعلنا ذلك لكنا محسنين إلى الأزهر ، إلى علمائه وطلابه ، وإلى العصر الذى نعيش فيه

إن الدراسة على هذا النحو فرصة من الفرص الجيدة التى تمهد السبيل لظهور الانتاج الأزهرى والانتفاع به ، فإذا لم تتح هذه الفرصة لعلمائه ، فعلى من يقع إثم التعويق عنها ؟

لا ينبغى أن نسرف فى التشاؤم ولا أن نقول : إن مدرس الموضوع لم يخلق ، ففى الأزهر كثير عندهم هذا الاستعداد ، فليكن عملهم بدء الغيث . فإن أصابوا فذلك ما نرجوه ، وإلا كانوا النواة الحسنة لمن يجىء بعدهم من إخوانهم وأبنائهم .

وإذا نحن انتظرنا بالدراسة الموضوعية إلى أن يخلق مدرس الموضوع ولم نعمل على خلقه وتكوينه ، تقطعت بنا السبل وخلفتنا القافلة ولم نصل إلى ما نريد

إن أنسب الأوقات لإعلان هذه الآراء والمناداة بها هو ذلك الوقت الذى يدير الشئون فيه شيخ هو خير شيوخ الأزهر فيمن رأينا

ونحن إذ نجهر بذلك وننادى به فإنما نعبر عن رأى الكثيرين من العلماء ، وبخاصة ذووا الصراحة منهم ، ونحتذى فى الوقت نفسه خطة المصلح الأكبر الإمام المراغى التى رسمها فى أول خطاب له فى الجامع الأزهر حين عاد شيخاً له للمرة الثانية

فهل يجد هذا النداء المتواضع من سميع ؟

عبد العزيز محمد عيسى
مدرس بمعهد القاهرة

فتنـــة الزَّنج (*)

ورثاء البصرة فى شعر ابن الرومى

للأستاذ محمود الشرقاوى

فى هذا الوقت الذى نسمع فيه ونقرأ أنباء ذلك الخراب الذى يصيب المدائن العظيمة من هذه الحرب بين انجلترا وألمانيا ؛ وذلك العذاب الذى يصبّ على الآمنين من أهلها ، ينزل عليهم من السماء ، ذكرت قصيدة من عيون الشعر وعجائبه قالها « ابن الرومى » فى حال تشبه هذه الحال ، هى قصيدته فى رثاء البصرة . وقبل أن أقدم لقراء « الرسالة » هذه القصيدة العجيبة أذكر خلاصة سريعة من التاريخ عن « فتنة الزنج » الذين جرى على أيديهم خراب البصرة فى القرن الثالث الهجرى :

صاحب الزنج

فى شهر شوال من سنة خمس وخمسين ومائتين ، خرج فى فرات البصرة رجل وزعم أنه على بن محمد بن حمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ؛ وجمع الزنج الذين كانوا يسكنون السباخ وعبر دجلة فنزل الديناري ، وكان قد شخص من سامرّا سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين ، فادعى بها أنه على بن عبد الله بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله ابن العباس بن على بن أبى طالب ، ودعا الناس بهجر إلى طاعته ، فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم . وكان أهل البحرين قد أحلّوه بمحل نبى ، وجبى الخراج ونفذ فيهم حكمه ، وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه

ذلك هو مبدأ ظهور صاحب الزنج كما رواه ابن الأثير فى تاريخه الكامل ، ومنه نعرف أنه رجل دعىّ أفاق ، كان اسمه الحقيق على بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه فى عبد القيس ، وأمه من قرى الرى ، وأن أمه لأبيه كانت جارية سندية ، وكان متصلاً بجماعة من حاشية المنتصر ، كان معاشه منهم يمدحهم ويستميحهم بشعره منهم ومن غيرهم

وقد جعل هذا الرجل العجيب لنفسه خطة بارعة للوصول إلى غرضه والحصول على ما يبتغيه من الحكم والسلطان . فجعل لنفسه زوراً هذا النسب الشريف يصل به إلى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . مرة على أنه ابن محمد بن أحمد بن عيسى إلخ ... ومرة على أنه ابن عبد الله بن محمد بن الفضل . وهو فى كليهما واصل نسبه إلى على بن أبى طالب . ثم استولى على جماعة من ضعاف العقول فى أهل البحرين ، فجعل نفسه بينهم نبياً زعم لنفسه الآيات حتى قال : « إنى فكرت فى الموضع الذى أقصده حيث نبت بى البلاد فأظلتنى غمامة وخوطبت منها فقيل لى : إقصد البصرة »

ومن الدهاء العجيب الذى تحايل به صاحب الزنج أنه بدأ دعوته بين العبيد والدهماء والأراذل من الشعب فزعم أنه ناصرهم وخارج بهم من الذل والفقر والعبودية

ذكر ريحان — أحد أصحابه الأول — قال : « كنت موكلا بغلمان مولاى أنقل لهم الدقيق ، فأخذنى أصحابه فساروا بى إليه وأمرونى أن أسلم عليه بالأمرة ففعلت . فسألنى عن الموضع الذى جئت منه فأخبرته . وسألنى عن أخبار البصرة فقلت : لا علم لى . وسألنى عن غلمان السودجيين وعن أحوالهم وما يجرى لهم فأعلمته . فدعانى إلى ما هو عليه فأجبته فقال : إحتل فيمن قدرت عليه من الغلمان وأقبل بهم إلىّ . ووعدنى أن يقوّدنى على من آتيه به واستحلفنى ألا أعلم أحداً بموضعه وأن أرجع إليه ؛ وخلى سبيلى »

« وما زال يدعو غلمان أهل البصرة ويقبلون إليه للخلاص من الرق والتعب ، فاجتمع عنده منهم خلق كثير فخطبهم ووعدهم أن يقوّدهم ويملّكهم الأموال . وحلف لهم بالأيمان ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الاحسان إلا أتى به إليهم »

وكان من الطبيعى وقد دخل هذا الأفاق على العبيد من هذا الباب وأطمعهم أن يكونوا أحراراً ، بل وعدهم أن يملكهم الأموال وهم أنفسهم مملوكون لمواليهم ، كان من الطبيعى أن يجد من نفوسهم قبولاً لدعوته وحماسة فى الدفاع عنها

فهذا الرجل الماكر أقام دعوته على ثلاثة عمد رواسخ : أولها هذا النسب الشريف الذى ادعاه لنفسه متصلاً بالحسين بن على . وثانيها دخوله على المستضعفين الأذلاء من العبيد حتى قال الطبرى إنه جمع لدعوته الزنج الذين كانوا « يكسحون السباخ » وكذلك فى النجوم الزاهرة . وهؤلاء يدفعهم ما هم فيه من البؤس والتعس والشقوة إلى المناصرة والاندفاع . وكيف بهم يقودهم رجل شريف من نسل الامام على يمنيهم ويعدهم ويجعل نفسه

(*) الزنج بفتح الزاى (وتكسر) جيل من السودان وهم الزنوج « القاموس والمصباح »

موكلا بخلاصهم من الرق والذل والفقر والهوان . ويصل نفسه بهم حتى يكون وهو الرجل الشريف « صاحب الزنج »

وثالث هذه العمد ادعاؤه النبوة أو ما هو قريب منها . وقد آمن بدعوته قوم من هؤلاء العبيد . وبذلك أثار في نفوسهم أشد ما فيها من العواطف قوة وجوحاً من العواطف : الإيمان والنفع الذاتي بعد الوصول إلى الحرية ، وهي أعز ما تشتهيه النفس الإنسانية .

ظهور الفتنة

لا أريد بعد ذلك أن أتابع الخطوات التي مشت بها فتنة الزنج في العراق ؛ ولكني أبرز من ذلك أمرين يستطيع القارئ أن يعرف بهما إلى أي حد استطاع صاحب الزنج أن يكون مع عبيده السود قوة قاهرة تخيف الولاة وتحارب جند الخليفة ، وتدخل الرعب في قلوب الناس

أذكر أن صاحب الزنج استطاع في سنتين اثنتين أن يأخذ من جند الخليفة بلاد الأبلة وعبادان والأهواز والبصرة ، واستطاع في هاتين السنتين (وهما سنتا ست وخمسين ومائتين وسبع وخمسين) أن يحارب من الولاة ومن القواد سعيداً الحاجب وابن الدير ، ومسيرا المولد وموسى بن بغا وعدة غيرهم ، واستطاع أن يهزم كثيرين منهم وأن يأخذ منهم ما أخذ من البلاد

وأذكر هذه القصة التي رواها ابن الأثير تدل على ذلك الفزع والرعب الذي ملأ به صاحب الزنج قلوب الناس ، وذلك الحقد والجبروت الذي ملأ به قلوب زنوجه العبيد على أسيادهم ومواليهم

يقول ابن الأثير إن موالي هؤلاء العبيد وقد رأوا سلطان صاحب الزنج على عبيدهم وخافوا بطشه أتوا إليه « وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إلى كل منهم عبده . فبطح أصحابهم وأمر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم . . . أو وكيلهم كل سيد خمسمائة سوط . ثم أطلقهم »

فتأمل ذلك الرجل الذي يبطح السيد المالك ليضربه عبده ومملوكه خمسمائة سوط . ولا يبيع هذا العبد بخمسة دنانير لسيده وصاحب رقبته ، وهو لا يملكه . . . !

خراب البصرة

وبقي هكذا حال صاحب الزنج وزنوجه يستفحل أمرهم ، ويستشري داؤهم ، حتى كان شهر شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين ، فاجتمع الأعراب من البحرين بإمرة محمد بن يزيد الدارمي ، وتجمع عليهم كثيرون من مثلهم أتباع صاحب الزنج ، وأحاطوا البصرة من أطرافها فدخلوها وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من شوال . وأباح صاحب الزنج لزنوجه البصرة يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت يفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون ... ! حتى حرق المسجد وأحرقت البصرة في عدة مواضع ، واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل

وقدمت الخدعة إلى أهل البصرة بأن من دخل دار فلان فهو آمن ؛ فجاء أهل البصرة قاطبة إلى دار الأمان ثم غُدر بهم وقتلوا ، فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة ، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلم إلا النادر منهم . وعظم الخطب بالقتل والتحريق والنهب ؛ فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه ، ومن كان فقيراً قتلوه لوقته . وبقوا كذلك عدة أيام[1]

ابن الرومي

هذه الصورة الدموية البشعة التي تلخصها تلك السطور السابقة عن خراب البصرة على يد الزنج قد أوحت لعلي بن العباس ابن جريج (ابن الرومي) قصيدة عجيبة هي من غرائب الشعر العربي وضوح بيان وقوة تصوير وإعجاب خيال وصدق عاطفة . وهي من بدائع الشعر العربي كله. هذه القصيدة هي التي نقدمها لقراء الرسالة

(البقية في العدد القادم) محمود الشرقاوي

(١) اعتمدت في كتابة هذا الفصل على رواية الكامل في التاريخ ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي

من أدب الحرب

نهـــاية زعيم ...

[مرفوعة إلى المغفور له خالد الذكر السنيور موسوليني !]

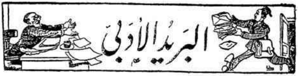
للأستاذ أحمد فتحي مرسي

خَفِّضْ عَلَيْكَ مِنَ الْعَذَابِ   الصَّبْرُ أَجْمَلُ فى الْمُصَابِ
وَلَّى صَوَابُكَ لا أَصَبْـ   ـتَ ولا رَجعتَ إلى الصَّوَاب
لَكَ إنْ تَشَأْ فى الْخطْبِ تَهْـ   ـزِيَتِى وَإِنْ شِئْتَ انتِحابى
هَوِّنْ عليكَ فهـــذهِ الدُّ   نيا كَلَمَّاحِ السَّرَاب
فيهـا الْقَرِيبُ إلى ابْتِعَا   دٍ ، والبعيدُ إلي اقتراب
لا تجزَعَنَّ مِنَ الصِّعَا   بِ فَأَنْتَ غَلَّابُ الصِّعَاب
كم ذا خَدعْتَ النَّاسَ بالـ   ـتَّمويهِ وَالْكَلِمِ الْعِذَاب
فَلَكَ الْجَوَارِى الْمُنْشَئا   تُ مَلأْنَ آفَاقَ الْعُبَاب
وَلَكَ الأُســـودُ الضارِيا   تُ بغيرِ أظفارٍ وناب
ولك التَّحِيَّــــةُ والتَّجِلَّـــــةُ فى مَجِيئِكَ والذَّهاب
ولك اللِّسانُ الطَّلْـ   ـقُ فيَّاضُ البلاغةِ والخِطاب
يأتيكَ من تَضْلِيلِهِ الغَرَّا   رِ بالْعَجَبِ الْعُجَاب
ولكَ الضميرُ العَفُّ يُلْبَـ   ـسُ ثمَّ يُخْلَعُ كالثياب
يَتَخَلَّصُ الوَعْدُ الكِذَا   بُ بهِ إلى وَعْدٍ كِذَاب
ولكَ القليلُ من الفطا   نةِ والكثيرُ من الرَّغَاب
وَلَدَيْكَ من خُدَعِ السِّيا   سَةِ ما يزيدُ عَلَى الْجِرَاب
كَذَبَتْكَ أَحْلَامُ الْكَرَى   وَزَهَتْكَ أَوْهَامُ الشَّرَاب
أَسَدُ اللِّسانِ وَلَسْتَ فى   سَاحِ الوَغَى أَسَدَ الوِثَاب
ضَلَّ الذى رَكِبَ الضَّلا   لَ إلى الرَّغائبِ والطِّلَاب

إِنِّى أُنَاشِـــدُكَ الدَّمَ الْـ   ـمُهْرَاقَ فى شُعَبِ الْهِضَاب
والرِّفْقَ بالأرواحِ تَذْ   هَبُ فى الْمِرَاكِ والاغْتِرَاب
وفلولَ جنـــدِكَ هائما   تٍ فى السُّهولِ وفى الرَّوابى
وكتائِبَ الأَسْرَى تَوَا   لَى فى شُحُوب واكتِئَاب
هَلاَّ قنِعْتَ من « الْغَنِيـ   ـمَةِ » والهزيمة بالإياب

يَا أَوْحَدَ القُوَّادِ قُــلْ   لِى ما لِجَيْشِكَ فى اضطراب
أَعَلِمْتَ غَيْرَكَ عَبْقَرِىَّ (م) الْجَهْلِ ، مشئومَ الرِّكاب
فِيمَ الترفُّـــقُ والتلطُّـ   ـفُ بالمغيرِينَ الغِضاب
أَأَقولُ مُحتشِمٌ ـ هَدَاكَ اللَّــهُ ـ بلْ خَوْفُ الغِلاب
أينَ الرِّجالُ ، وَأَيْنَ أَبْـ   ـطالُ «الصِّراعِ» وَالانسحاب
قد سُقْتَهُمْ بل سُقْتَهُنَّ (م) إلى المماتِ بلا حساب
أَلْطِفْ بِهِنَّ فما يُطِقْـ   ـنَ ـ فديتهنَّ ـ أذى الضِّراب
رِفقاً ، فما صبرٌ لهنَّ (م) عَلَى الْبِعادِ والاغتراب
من كلِّ ممشُوقِ القوا   مِ حشدتَهُ غضِّ الإهاب
ما تفعلُ الصَّحراءُ بالأ   غنامِ فى الأرضِ اليَبَاب
قد أجْدَبَ المرعَى وَجَفَّ (م) لديهِ مُنْهَلُّ السَّحَاب
لَيْسَتْ مُوَطَّأَةَ الْفِرَا   شِ ، ولا مُمَهَّدَةَ الْجَنَاب
يَخْلُصْنَ من صَلْبِ الْقَنَا   ةِ إلى الألوفِ من الصِّلاب
لما بدَا يومُ الهـــزِيـ   ـمةِ فى دُنُوٍّ واقتراب
زِنَّ الْخُدودَ لها وَخَضَّبْـ   ـنَ الأظافرَ بالْخِضَاب
وَرَمَيْنَ مُشْرَعَةَ الْقَنَــــا   ونبذْنَ مُرْهَفَةَ الْحِرَابِ
وأخذْنَ أُهْبَتَهُنَّ للأســـرِ الْمُبارَكِ والذَّهَـــابِ
وَجَعَلْنَ يَقْــدُدْنَ الدقَا   ئِقَ فِى اشتياقٍ وارتقابِ
إن تحملْ السيفَ النسا   ءُ ، فالفُ بشرَى لِلرِّقابِ

أَقْسَمْتُ باللهِ العَـــلِىِّ   وَبالرســـولِ وبالكتابِ
وَالليلِ وَالإصــــبَاحِ   وَالـــجيْشِ الْمُشَرَّدِ فِى الشِّعابِ
لولا التعفُّفُ   وَالترفُّـــقُ وَالْجُنُوحُ عن السِّبابِ
لجعلتُ منكَ ، وَقدْ جلوْ   تُكَ لِلعيُونِ بلا نقابِ
أُضْحُوكَةَ الدُّنْيَـــا   وَسُخْـــرِيَةَ المجالس وَالصِّحَاب



خزائن الكتب في قصور الأندلسيين

حديث حضرة العلامة الأستاذ عباس محمود العقاد عن مكتبات القصور الأوربية في المقالة الأولى في الرسالة الغراء (٣٩٥) - ذكرنا بشيء في (نفح الطيب) أرويه حاشية لحديث حضرة الأستاذ. وفي خبر النفح فائدة تاريخية وأملوحة :

قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب . صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب ، وينتخب فيها ، ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به

قال الحضرمي : أقمت مرة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة ، أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع ، وهو بخط مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة علي ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا ، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي . فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت : أعز الله سيدنا الفقيه ! إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده

فقال لي : لست بفقيه ، ولا أدري ما فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير

قال الحضرمي : فأحرجني وحملني على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك . يُعطى الجوز من لا أسنان له ! وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً ، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه ! «باحث»

المجمع اللغوي والمعجم الوسيط

أخي الأستاذ الجليل صاحب «الرسالة» الغراء

بعد التحية اللائقة ، قرأت كلمة تحت عنوان : «المجمع اللغوي والمعجم الوسيط» عرض فيها كاتبها لنفقات هذا المعجم وظل يترقى بهذه النفقات حتى أبلغها ١٠٠٠٠٠ جنيه مائة ألف من الجنيهات !!!

والواقع أن وزارة المعارف تعاقدت مع سبعة من العلماء اللغويين بعضهم من حضرات أعضاء المجمع ، وبعضهم من حضرات أساتذة الجامعة ، على أن يقوموا في مدى عامين بوضع هذا المعجم على أحدث الأساليب في نظير مبلغ معين يقل عن ألف وسبعمائة جنيه لهم جميعاً . وقد قام تقدير هذا المبلغ على أساس ما تجيز به وزارة المعارف المؤلفين الآخرين

أما دعوى أنهم لم ينجزوا إلا مائة وعشرين صفحة إلى الآن فهي من نوع ذلك الحساب أيضاً !

وتفضل يا صديقي بقبول أزكى السلام ، وأخلص الاحترام .

المخلص

عبد العزيز البشري

المراقب الاداري للمجمع

عطفاً على بلدٍ ضعيفِ الرُّكنِ مخذولِ الشبابِ

قد عادَ مهجورَ الرِّحا   بِ وكانَ محشودَ الرِّحابِ

عمّى بصائرَهُ الضلا   لُ عن الحقيقةِ والصَّوابِ

والعينُ تبصرُ في الضيا   ءِ وليسَ تبصرُ في الضبابِ

قد سُقْتَهُ — ثَبْتَ الجنا   نِ — إلى الهزيمةِ والخرابِ

وَرَكَنْتَ للآمالِ ، والآ   مالُ أمنعُ من عُقابِ

كُفَّ الخداعَ عن الورى   قد جاءهُمْ فصلُ الخطابِ

إنَّ المحجَّبَ سوفَ يَبْدُو   للعيونِ بلا حجابِ

دَعْهُمْ وشأنَهُمْ جزا   كَ اللهُ موفورَ الثوابِ

لا يومَ للأقوامِ حتَّى   تذهبَنَّ بلا إيابِ

(القاهرة) «نخمي»

خصومة أدبية

ما أحبها إلى نفسي خصومة أدبية تقوم على صفحات الرسالة الغراء بيني وبين صديق الدكتور زكي مبارك ، فإن في الخصومات الأدبية للمتخاصمين مجالاً واسعاً للبحث والتدقيق ، ولحضرات القارئين مجالاً أوسع للموازنة والتحكيم

وإني لأشكر لصديقي الدكتور إثارة هـذه الخصومة ، وأطمئنه على نزولى ميدانها عن طيبة خاطر واستراحة فؤاد ؛ غير أني قبل الخوض في هذه الخصومة أرى من حق نفسي وحق الموضوع عليّ ، كما أرى من حق الرسالة وقرائها كذلك ، أن تتسع صفحاتها في العددين المقبلين لـكلمتين اثنتين لي

فأما إحداهما فلوضع الأمر الأصيل في نصابه وتقريره على وجهه ، لأنه الذي دعا الدكتور إلى كلمته الأولى المنشورة في العدد ٣٩٢ وكنت أغفلت الرد عليها عسى أن يتحرى الحقيقة ولكنه لم يفعل .

وأما الأخرى فحول النظرية التي ادعى في العدد الأخير أني نهبتها من كتابه النثر الفني ونشرتها في مجلة السراج حتى يعلم حضرات القراء أينا الناهب

وأما الذي يهدد به ويعتزم تبيينه ، من أن تهذيبي للكامل لم يكن إلا جناية أدبية ، ومن أن التطاول على مقام الشيخ المرصفي لا يذهب بلا عقاب ، فهو ما سيكون حلبة الخصومة ، وليعرف الملأ إذ ذاك — إن هو اجترأ على الكتابة بعد كلمتي هاتين — أينا الجاني على الأدب بآثاره ، وأينا القليل الاطلاع الطائش الأحكام في أبحاثه ، وإلى اللقاء

السباعي بيومي
أستاذ بدار العلوم

إلى الدكتور مبارك

كان قلمكم الثائر قد خط في مقالكم الخامس في نقد آراء الأستاذ أحمد أمين وتبيان جنايته على الأدب العربي (الرسالة ٣١٤ — ١٠ يولية سنة ١٩٣٩) أن هذا الأستاذ لم يؤت أسلوباً خاصاً ، وأنه ما كان في يوم من الأيام أديباً ، وكان مما قلتموه يومئذ :

— إن أحمد أمين ليس له أسلوب ......

وإن الرجل لا يكون له أسلوب إلا يوم يصح أنه يحس الثورة على ما يكره والأنس بما يحب . فعندئذ تعرف نفسه معنى الانطباعات الذاتية ، ويعبر عن روحه وعقله وقلبه بأسلوب خاص . . .

ولقد عانى أحمد أمين في الواحات فلم يصفها ، واشتغل بالقضاء الشرعي فما توجع مرة واحدة للمآسي التي رآها ، ولو كان أحمد أمين أديباً لـكتب خواطره وسطر إحساساته في القضاء وفي الواحات ، « ولـكن أحمد أمين لم يكن أديباً وإنما كان موظفاً مخلصاً لواجب الوظيفة لا يرى ما عداها من الشئون » (الرسالة ٣١٤ ص ١٣٣٧ — ١٣٣٨)

ويمضي على ذلك سـنة ونصف سنة ، ويأتي العـدد (٣٨٤ — ١١ نوفبر سنة ١٩٤٠) من الرسالة فما نجد يا ترى ؟ وما ذا نرى ؟

نجد أن الدكتور زكي مبارك يقول : « يجب الاعتراف بأن لأحمد أمين أسلوباً ... وبأن لهذا الأسلوب شخصية تتميز بالسهولة والوضوح ... » ؛ وبأن في كتابه « فيض الخاطر » مقالات من الأدب الذاتي ، « وهو الأدب الذي يصور الـكاتب وإحساساته ...

ثم رجا طلاب السنة التوجيهية « أن يفطنوا وهم يقرأون كتاب « فيض الخاطر » إلى أن المؤلف أديب . . . يصور لواعج نفسه »

فهـل للأستاذ أن يجلو لنا السر الذي جعل أحمد أمين أديباً ؟ أم إن ذلك كان من باب : (رضيت فكسوته ، وغضبت فجردته ...!)

وللدكتور مبارك منا أجل التحيات

« دمشق » صلاح الدين المنجد

متحف وزارة المعارف

تساءل الدكتور زكي مبارك في أثناء مقاله في عدد الرسالة (٣٩٥) عن متحف وزارة المعارف ليقدم إليه هدية سنية ، هي رسالة من الدكتور طه حسين ، وكتاب من مؤلفات الأستاذ أحمد الاسكندري كان أهداه للأستاذ مصطفى أمين ، وعلى الكتاب عبارة « إهداء بقلم الاسكندري »

وأذكر بهذه المناسبة أني بحثت عبثاً عن متحف وزارة المعارف لأهدى إليه تحفة تاريخية لها قيمتها الأدبية ، وهذه التحفة هي عدة رسائل بخط المغفور له إبرهيم أدهم باشا ثاني نظار المعارف المصرية على عهد ساكن الجنان المغفور له الخديو إسماعيل

ولا شك أن مثل هذه الرسائل مكانها متحف وزارة المعارف الذي يصونها من التلف ويحفظها من الضياع ، فمثل هذه الرسائل أصبحت ملكا للتاريخ والأجيال المقبلة

ومن العجيب أن يكون للبريد متحف ، وللسكة الحديد متحف ، وللصحة متحف ، ثم لا يكون لوزارة المعارف متحف ! حقاً إن هذا نقص يجب أن يكمل ، وثغرة من الواجب سدها ونرجو أن تولى وزارة المعارف هذه الملاحظة عنايتها ، وأن تنظر إليها بعين الاعتبار ، ولا سيما وعلى رأس هذه الوزارة أناس عرفوا برجاحة العقل وقوة العزيمة ومضاء الهمة

(القاهرة) ابرهيم أدهم

تصويب

جاء بالعدد ٣٩٥ في مقال (دير مديان) : قال الله عز وجل « الذين أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » والصواب « الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »

محمد الساكت
بكلية أصول الدين



البغض الأول

للقصصي الروسي أنطون شيخوف

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

جلس جماعة من المصطافين فى كوخ بين الحشائش الخضر وكانت الليلة قمراء ونافذة الكوخ مفتوحة ينفذ منها ضياء القمر. وكانت روائح النبات تفوح فى المكان والأصدقاء يتحدثون أحاديث مختلفة، وتناول الحديث ذكر النساء والحب فقص كل منهم أقاصيص كثيرة حتى تجاوز عدد هذه الأقاصيص المائة أقصوصة

وكان فى ركن من الكوخ ضابط لزم الصمت من أول الليلة وظل يتثاءب؛ فلما جاء دوره صاح:

« ليس فى التحدث عن الحب غرابة، فكل النساء قد خلقن للحب، وليس لأحدكم أن يفاخر بالحب؛ فهل منكم من جرب البغض الحق؟ هل عرف أحدكم الكراهية؟ »

لم يجبه أحد، واستمر الضابط يقول: « أنا قد جربت هذا البغض فقد كرهتني فتاة فدرست فى شخصى أعراض الكراهية الأولى؛ وإنما قلت الكراهية الأولى كما يقال الحب الأول. ولكن هذه التجربة الغريبة قد حدثت فى عهد من العمر لم تكن لدى فيه فكرة واضحة عن الحب والبغض فقد كنت لا أتجاوز الثامنة من العمر » وليس هذا مطلب القصة بل مطلبها فتاة فأنصتوا:

خرجت من المدرسة فى أصيل يوم من الأيام وجلست أمام مكتبى فى الغرفة التى أذاكر فيها، وكانت مربيتى — وهى فتاة حديثة عهد بالمدرسة — تطل من النافذة

نظرت إلى فتبينت على وجهها الارتباك، وسألتنى وهى لا تكاد تعى ما تقول: هل الأشجار تتنفس الأكسجين؟

فقلت: نعم

قالت: وماذا نتنفس نحن؟

فقلت: ثانى أكسيد الكربون؟

قال: أصبت، وثانى أكسيد الكربون غاز خانق يوجد فى الكهوف وفى بعض المياه، وقد رأيت كهفاً بالقرب من مدينة نابولى يكثر فيه هذا الغاز، ورأيت كلباً ألقى فيه فمات لساعته

قالت لى مربيتى بعد هذا الحديث: إن أبى وأمى ليسا بالمنزل، وإن أخى يشكو الصداع وأنه ذهب للطبيب وأن ليس بالمنزل غيرى وغيرها، ثم سألتنى وهى لا تزال تطل من النافذة على الأشجار وما يليها من الفضاء:

ما هو الأفق؟

فقلت: هو الخط الوهمى الذى عنده تلتقى السماء بالأرض

وعادت فسألتنى وهى لا تزال تنظر إلى الأشجار: وهل الأشجار تتنفس الأكسجين؟

فقلت: نعم، ثم رأيت فى يدها ورقة مطوية قد شدت عليها أناملها ونظرها يرتد عن الأشجار وقالت: فى إيطاليا كهف بالقرب من نابولى يكثر فيه هذا الغاز الخانق، هل تقول: إن الأفق هو الذى تلتقى عنده السماء بالأرض؟

وكانت وهى تقول ذلك كالحالمة، وتجلى اضطرابها الشديد، ثم مشت ذهاباً وإياباً فى الغرفة بحالة تدل على القلق وقالت لى: إقرأ درس الرياضة حتى أعود بعد نصف ساعة

خرجت مربيتى من الغرفة، ورأيتها وهى تمشى فى الحديقة بخطوات كخطوات المحموم، وكان وجهها أكثر احمراراً من عهدى به، واضطرابها جلى إلى درجة استلفتت نظرى، فقلت فى نفسى: إلى أين تذهب يا ترى؟

وطويت الكتاب وقلت: أتبعها وكنت أحسبها ستنتهز غياب أمى فرصة وتسرق بعض الفواكه من أشجار الحديقة. ولكنها لم تفعل بل تجاوزت كوخ البواب وخرجت من المنزل، وتبعتها مختفياً وراء الأشجار حتى وصلت إلى البحيرة. وهنالك... هنالك وجدت أخى الذى قالت إنه مريض وأنه ذاهب إلى الطبيب

لم يكن أخى عند ما شاهدته مريضاً بل وقف عند ما رآها وكأن قوة غريبة دفعت كلا منهما إلى الآخر فتعانقا وقبلها وقبلته وفهمت من كل حركاتها وإن كنت صغيراً أن هذه أول مرة فعلت فيها مثل ذلك

وكان وراءها أكمة عالية فنابا خلفها وعدت إلى المنزل وأنا أشعر بخجل شديد. ولم أر أكثر من ذلك، ولكن لكوني متقدماً في الذكاء عمن كانوا في مثل عمري فقد فكرت في الأمر وقلت لا بد من الاستفادة منه. ثم ابتسمت ابتسامة المنتصر، وذلك لأن في معرفة الأسرار لذة لا يستهان بها خصوصاً إذا كانت أسرار أخي الذي له نفوذ بالمنزل، ومربيتي التي لها نفوذ عليّ

لما عادت مربيتي إلى الغرفة كالعادة نظرت إلى وجهها الجميل وعينيها البراقتين، وكان السر الذي أكتمه يكاد يمزقني فقلت: لقد عرفت! لقد رأيت!

قالت: «ما الذي رأيته، وما الذي عرفته؟»

فقلت: «رأيت أخي يقبلك وأنت تقبلينه عند البحيرة»

عند ذلك وجدت النار تكاد تتقد في عينيها، وجلست خائرة القوى على المقعد ولم تنطق بحرف، وأعدت جملتي وزدت عليها: «انتظري حتى أخبر أمي»

فنظرت إلي باهتمام ورعب؛ ثم لما تبينت أني لن أفعل أمسكت بذراعي وهي في حالة شديدة من اليأس، وقالت بصوت خافت: «هذا لا يليق ... أتوسل إليك ... بالله لا تقل شيئاً! إن الشرفاء لا يتجسسون ... أتوسل إليك ...!»

لقد كانت مربيتي المسكينة تخاف من أمي، وهذا سبب من أسباب فزعها، ولكن أهم هذه الأسباب هو افتضاح حبها الأول. وأنتم بلا ريب تقدرون شعورها في هذه الحال. وفي الصباح عرفت أنها لم تنم طول ليلتها لأني رأيت حول عينيها هالة زرقاء مسودة، ورأيت على عينيها علامة السهاد. ولما وجدتها وحدها بعد ذلك في غرفتي قلت: «لقد عرفت، لقد رأيت!»

فنظرت إلي ولم تجب، ثم لما رأيت أخي وحده قلت له هذا القول، فلم يكن ليخاف خوف المربية، بل شتمني فخفت أنا ... ولم أعد أجرؤ على تكرار كلمتي أمامه. أما المربية فقد أردت الاستفادة من معرفة سرها، فصرت لا أذاكر، وصرت أعبث في غرفتي كما أشاء فلا تشكو إلى أمي ولا تظهر لي الضجر. وحافظت على تلقيني دروسي متى أردت وعلى شرح ما أطلب شرحه، وهي تتغاضى وتلزم الوقار. ولكن مضى أسبوع وضاق صدري بالسر فجلست مرة مع أمي وكانت معنا المربية وأخي فقلت لأمي: «لقد عرفت! لقد رأيت!» فبدا الفزع والرعب على وجه المربية وبدا الغضب على وجه أخي ولكني لم أزد ولم تسألني أمي.

ومن ذلك اليوم صرت أرى نظرات المقت والكراهية الجنونية على عيني المربية وصارت تقرض أسنانها كالذئب كلما رأتني؛ وبدأت أعرف كيف تكون كراهية الشياطين.

وفي يوم من الأيام كانت تلقنني الدرس فسمعتها تقول: «إنني أمقتك! ليتك تعرف مقدار كرهي لك أيها الحيوان» ثم زادت على ذلك: «إنني لا أخاطبك ولكنني أعيد جملة من رواية.»

كانت بعد ذلك تأتي إلى غرفة نومي وتنظر إلي وأنا بين النوم واليقظة نظرة مقت؛ وصارت الحالة تزداد حتى أمسكتني من ذراعي مرة من المرار وقالت: «إنني أكرهك وما تمنيت لإنسان من الشر مثل الذي أتمناه لك وأريد أن تفهم ذلك.»

كان ذلك في الليل، وكان ضياء القمر الشاحب ينير الغرفة، ونظرت إلى عينيها فسررت أولاً، لأن هذا الشيء جديد، ثم خفت فصرخت بصوت عال، ثم عزمت على أن أخبر أمي؛ على أني لو كنت أعرف جوابها لما عزمت هذا العزم الأحمق لقد أجابتني: «وما شأنك أنت؟ أنت صغير فلماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟»

وكانت أمي فاضلة رقيقة الإحساس؛ وكانت تتجنب ما يؤدي إلى الفضيحة فلم تطرد مربيتي في الحال بل انتظرت مدة كانت تنصرف فيها عن المربية شيئاً فشيئاً ثم أخرجتها بعد مدة من المنزل لسبب آخر انتحلته. وأنا لا أزال أذكر تلك النظرة التي رمتني بها المربية وهي تغادر المنزل

بعد ذلك بعهد طويل صارت مربيتي زوجة لأخي وهي فلانة التي تعرفونها جميعاً. وتغيرت ملامحي فلم أعد أشبه ذلك الغلام الذي كنته، ولكنها بالرغم من ذلك لا تزال تنظر إليّ إلى اليوم نظرة بعيدة عن الود، وتعاملني كلما زرت أخي معاملة غير معاملة الأصهار، وما ذلك إلا لأن البغض الأول كالحب الأول ليس من السهل أن يزول

عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)